

وصار رجلاً

**الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب**

البريد الإلكتروني

E-mail: unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
<http://www.awu.sy>

الإخراج الفني : وفاء الساطي

مصطفى جاعود

وصار رجلاً

سلسلة الرواية (2)
2021

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

الكتابة مهمة جسيمة الآن، لم يعد غرضها تسليية العقول بالقصص الخرافية، ومساعدة هذه العقول على النسيان، بل أصبح غرضها تحقيق حالة من التوحد بين كافة القوى الوضاعة التي ما تزال قادرة على الحياة، وتحريض الإنسان على بذل قصارى جهده، لتجاوز الوحش الكامن في أعماقه.

نيكوس كازنتزاكس

الإشارة لغة يستعملها الربّ مع بني البشر، ليريهم ما ينبغي فعله، الإشارة تقارع المعجزة، والمعجزة تناطح الواقع، تفتح فيه ثغرة وتدخل.
باولو كويلو

توطئة

لبس الفتى الصغير ذو العينين المتألفتين، ثيابه البسيطة، وكشكوشته التي أخاطتها له أمّه من الخام الأبيض، لتغطي رأسه ورقبته وقسماً من جبهته للحماية من الآثار الضارة للشمس، وحذاء الكاوتشوكي المقاوم، وعلّق على كتفه حقيبته القماشية وبداخلها (ربع يس) من القرآن الكريم، وقلم رصاص، ودفترًا صغيراً. وتبّاعة من غصن ريحان مبرية كالقلم، ليتابع الشيخ المعلم بها على كلمات السورة القرآنية أمامه، وكمشة من التين اليباس.



هناك في حضان الطبيعة وتحت شجرة سنديان عتيقة، قرب مزار مهيب وعلى حصير مضفور من أوراق نبات (الخوص)، والشيخ يهز بيده قضيب الرمان، تراءت له أسطوره الشخصية قائلة بلغة الإشارة: امض يا غلام، وسأساعدك على الانطلاق إلى رحاب أوسع مما يحيط بك، سأنقلك من ذروة إلى أخرى، لم تكن تحلم بها أنت ولا أبوك قبلاً، سأزرع لك إشارات تنير لك الطريق، سأوصلك إلى الطرف. توقف الغلام عن متابعة الشيخ متسائلاً:

من تكونين يا من تقرعين داخلي، من أين جئت بهذه المصطلحات، ما معنى الانطلاق، ما معنى رحاب أوسع، ما هذه الإشارات التي تلمّحين إليها، أيّ طرف ستوصليني إليه!!؟

أجابت:

تمهّل يا فتى فإنك ستصل إلى معرفة هذا وأكثر، بالحبّ، بالجدّ، بالمتابعة بالإخلاص للعمل، بدءاً من حفظ ما يمليه عليك الشيخ، إلى ما يكلفك به والدك (رشيد) - الملتصق بالأرض، والذي كنت أقف له عند كل مفترق - من عمل، ثم كل ما يوكل إليك من مهام تراها خيرة.

قال الفتى في سرّه:

سأنفذ كل ما طلبت، وأترك للحياة أن تحملني إلى المجهول، حيث لا أتوه أبداً. وكان سعيداً بالقدر الذي يستطيع فتىً مثله بلوغه، وشعر بالامتنان.

التزم فاتبعتة الإشارات، وعند الأزمات كانت تتأطح لأجله الواقع وتدخل.

1.

تابع (مجتبى) الولد الأصغر من أولاد (رشيد) الخمسة - الذي ولد قبيل استقلال البلد - تعليمه بالمدرسة الابتدائية. في أول عام من افتتاحها بالقرية، بأوائل الأربعينيات من القرن الماضي، وأظهر تميّزاً ملحوظاً بين تلاميذها القلائل أصلاً، ذلك لأن الشيخ المعلم كان قد علّمه القراءة، ومبادئ علم الحساب.

وأخذ المعلم الوحيد بالمدرسة يعتمد عليه في تعليم التلاميذ المبتدئين. لم يكن والده مثقفاً، لكنه كان يشجعه على أي شيء له علاقة في تطوره الفكري، لأنه كان يعلّق كل آماله عليه، ويعتقد بأنه سيرتقي برقية هو وجميع أفراد أسرته.

وبنيل (مجتبى) الشهادة الابتدائية، انقطع أمله وأمل أبيه، من متابعة تعليمه، ذلك لأنه لم يكن يوجد في منطقته كلّها مدرسة إعدادية حكومية، ولا خاصة، ولم يكن للأسرة أية صلة أو تواصل مع أي ساكن في المدينة، يعول عليه بوضع (مجتبى) بعهدته، ليتمكن من متابعة تعليمه فيها.

ومن جهة أخرى كانت الشهادة الابتدائية مؤهلة للوظيفة التي كان يحلم بها والده له (قولجي) أي جابي ضرائب عن رؤوس الماعز التي يربّيها الفلاحون.

ولحسن حظّ (مجتبى) فقد أُحدثت إعداديّة خاصة، في عام نجاحه، في قرية من قرى المنطقة، يمكن الوصول إليها يومياً، مشياً على الأقدام، فتفاءل بذلك والده، واعتبره إشارة خير.

تابع دراسته في تلك المدرسة، في ظروف مناخيّة صعبة، يشيّب صقيعها القارس البيوت والأشجار والأشياء، وتجمّد الأصابع على حزمة الكتب المشدودة برياط مطاطي، وطريق موحل متعرّج، وكادر تعليمي غير مؤهّل، غير أنه صمّم على تحقيق ما وُعد به، وثمر الحلم باهظ.

وعندما يطلي الليل الخارج بالظلام. كان يذاكر دروسه، على ضوء بصبوس الكاز قرب موقد الحطب.

تمنّى مجتبى على والده أن يشتري له حقيبة جلدية تحمل باليد، تحتوي على عدّة جيوب، يخصص واحداً منها للكتب، والثاني للدفاتر والأقلام، والثالث لزوّادة الطعام، كتلك التي كانت مع أحد زملائه بالمدرسة.

ذهب والده (رشيد) - الذي كان يُسرّ لسروره، ويرى به مفخرة على أولاد الأغوات والمشايخ، وخاصة عندما كان يقرأ كالحكواتي مساءً كل ليلة خميس شتائية، للأسرة والجوار، بالقصص والروايات التي كان يستأجرها له من دكان (ورّاق) في مركز المنطقة، وكذلك مواضيع الإنشاء التي كان يعدّها كوظيفة مدرسيّة - واشترى له حقيبة كرتونيّة، تحمل باليد كتلك التي كان يضع الحلاق أدواته فيها أثناء تجواله على الفلاحين في مواقع عملهم، وذلك لأنّ الحقيبة المطلوبة كانت غالية الثمن.

وحينما رأى مجتبى تلك الحقيبة، تساقطت دموعه، وعلا نحيبه وثارَت ثأرتَه، ورفس الحقيبة بقدمه كما تشاط الكرة - على مرأى من أبيه وأمه وأخوته - فاخرقتها مقدّمة حذائه ونام مقهوراً، والأسرة نامت لقهره مقهورة أيضاً.

غير أنه استيقظ باكراً، وانتزع جلدة دفتر عتيق، وألصقها على الشرخ من الداخل، بعد طليها بالصمغ الذي كان قد جمعه عن ساق شجرة (مشمش). فبدت سليمة واستخدمها بفرح طيلة سنوات دراسته الإعدادية.

وبعد أن أمضى أربع سنوات في تلك المدرسة - الصف السادس كان في الحلقة الإعدادية - تقدم لامتحان الشهادة في مركز المحافظة، حالاً ضيفاً وبعض من زملائه، في غرفة صغيرة من فندق رخيص.

وحصل بنتيجة ذلك على الشهادة الإعدادية بتفوق، وكان هذا أعلى ذروة يصل إليها حلمه وحلم والده.

ومثلما اعترضت إشارات التوفيق طريق أبيه أثناء نزوحه من قريته الأصل هروباً - بسبب عدم رضوخه للظلم والاضطهاد، وهو يتجه نحو الحرية، نحو التطلع الأبدي للبشر - فإنها لم تبخل عليه أيضاً. حيث التقى وبالظرف المناسب. بمن دله على بداية الطريق، وأعلمه بوجود ثانوية زراعية داخلية، قرب مركز المدينة، في (بوقا) تتولى تعليم المتفوقين من أبناء الفلاحين، وتؤمن لهم أسباب الحياة مجاناً، وأرشده إلى كيفية التقدم إليها والوثائق المطلوبة لذلك، بعد أن كان قد يئس من إمكانية متابعة تعليمه، لكن الإيمان بالله وهو الوجه الأكثر ألقاً للأمل ذرع في نفسه الأمل.

كان لقاءه بذلك الشخص مصادفة، كأية مصادفة يرتبها القدر، لئلا ينقطع خيط التواصل بين البشر.

لم يتأخر إعلام (مجتبى) بكتاب رسمي، بأن إدارة الثانوية، ترحب به كطالب فيها، بعد أن كان قد تقدم بالطلب عبر البريد.

.2.

في الموعد المحدد، غادر القرية حاملاً شنتته التتكية المعدة من علب زيوت المحركات - والتي احتوت على ما أشار إليه الكتاب، كمستلزمات للحياة الداخلية (غيارات داخلية، شحاط، إبرة وخيطان، منشفة...) - على درب ثعبانية نزولاً وصعوداً. إلى الطريق العام، التي تبعد عن القرية مسافة لا يقلّ زمنها عن الساعة مشياً على الأقدام، وذلك بعد أن ودّعه أبوه قائلاً: (اللّهُ لا يضيع لك تعباً يا بني، بدنا إياك تبيض وجهنا).

وعلى الطريق انتظر وقتاً ليس بقصير، ريثما جاءت سيّارة أجرة متجهة إلى المدينة، التي كان قد وطئ أرضها لأول مرّة أثناء تقديمه الامتحان. هناك، وفي مركز تجمّع عربات الخيل الخاصّة بنقل البشر. التقى باثنين آخرين ينتظران ثالثاً إلى (بوقاً) -، تخفيفاً للأجرة، ولم يكن أي منهم يعلم في أي اتجاه تقع.

قاد الحوذي العربية على طريق إسفلتي ضيق، هاوياً بكرباجه الذي يصدر فرقعة على كفل الحصان، فتأخذ أرجله المحديّة بنضوات ومسامير حديدية، بإصدار فرقعة موسيقيّة منتظمة عالية الإيقاع. أوقف الحوذي العربية بعد قرابة نصف ساعة قائلاً:

هذا هو مدخل المدرسة يا شباب، تفضلوا بالنزول. ثم انصرف بعريته بعد أن أنقدهو إجرتة التي جمعوها من بعضهم.

رأوا أمامهم بوابة حديدية كبيرة، كتب أعلاها بخط عريض (ثانوية بوقا الزراعيّة) وتحتها وبخط رفيع كتب (كل شيء بالأمل، إلا الزراعة بالعمل).

قرعوا البوابة ففتح باب على جانبها الأيمن، أطلّ منه شاب يرتدي بدلة عمل خاكيّة اللون (لباس عمل الزراعيين) متسائلاً؟ نعم يا شباب؟ ثم دعاهم للدخول بعد أن اطلع من كل منهم على كتاب القبول الموجّه إليه.

كانت البوابة تخفي وراءها طريقاً مستقيماً معبداً. تحيط به أحواض زهور متعددة الأشكال والألوان، حتى مجمّع المدرسة. ثم بستان يرتقال على كلا الجانبين. استقبلهم معيد المدرسة وأرسل معهم أحد الأذنة ليسلم كل منهم في مهجع النوم سريراً فردياً مفروشاً، وخزانة خشبيّة عالية، وأخرى صغيرة ذات أدراج (كومودينه) بجانب السرير.

كانت المدرسة مؤلفة من مبنين كبيرين قرميديين، كل منهما بطابقين، يغطي جدرانهما العالية نبات متسلّق (حبل المساكين).

الطابق الأرضي من المبنى الأول مخصص للقاعات الدرسيّة العالية بالارتفاع والطابق الأول منه مهاجع للنوم.

الطابق الأرضي من المبنى الثاني (مكاتب - إدارة، مخبر تعليمي، مطبخ مطعم) والطابق الأول لسكن المدرسين.

وأمام المبنين تتبسط الملاعب الرياضية المتنوعة، الجماعي منها والفردي، وخلفها حديقة غناء كبيرة، تعج بأحواض الزهور وشجيرات الزينة وأقواس المتسلقات.

وقف مجتبي يوماً أمام نافذة من نوافذ المهجع الكبير، مقابلة للجبل الأخضر لجهة شروق الشمس، باتجاه قريته والقرية التي درس الإعدادية فيها مسترجعاً:

- صورة والده وهو يوصيه أثناء وداعه، بالاجتهاد والتزام الأخلاق التي تربّى عليها.

- ذكرى الاستيقاظ باكراً قبل الديك، والتسابق إلى المدرسة شرقاً، مع الغيوم الداكنة الزاحفة من فوق البحر، والبرد الذي يسع الوجه والأطراف وكامل الجسد، والريح التي تدفعه إلى الأمام، وبساطة طعام الغداء الذي كان يحمله ورفاقه في الحقائق القماشية بين الكتب ليتناولوه أثناء فترة الغداء، في باحة المدرسة المكشوفة للمطر والثلج. مقارنة ذلك مع ما هو عليه من راحة نفسيّة وجسديّة، تتصل بالدراسة، بالمطالعة الليلية، بالنظافة، بالنوم، بالطعام، وبما هو متاح له من ألعاب رياضيّة وأنشطة ثقافيّة.

من تلك البوابة، بوابة بوقا، المزيّنة بالأزهار، دخل (مجتبى) سنوات نضجه، واستيقظ داخله وحشان (اللحم والنفس) وهو يستسلم بكليته لحركة الحياة، ولأحلامه التي تدفعه قدماً، فيمتنّ كثيراً لذلك الدفع. ويشكر عباءة التوفيق التي تغلفه.

3.

بوفا كانت قد أسستها (فرنسا) أثناء استعمارها للبلد، كملجأ ومدرسة للأيتام، تربية وتعليماً، وتأهيلاً للحياة العمليّة، على مساحة خمسة وسبعين هكتاراً. خصص قسم منها للمنشآت الخدميّة (أبنية، ملاعب، طرقاً ممرّات...).

واستغلت المساحة المتبقية للتدريب والإنتاج (بساتين، خضار، محاصيل، مشاتل، مداجن، مناحل، حظائر لتربية الأبقار والأغنام، اصطبل خيول، برج حمام، كهف أرانب، منشرة، محددة، مصنع صغير للألبان، وآخر لتقطير العنب). وكان التلاميذ هم المتدربون والعاملون في كل هذه المجالات زراعة وإنتاجاً وتصنيعاً وتسويقاً، تحت إشراف المدرسين والمدربين العمليين، إضافة إلى البرامج النظرية للعلوم والمعارف.

واستمرت على النهج ذاته بعد الاستقلال، إنما تغيّر واقع المتعلمين فيها، من الأيتام الصغار إلى المتفوقين بالشهادة الابتدائية، من أبناء الأرياف للحصول على شهادة الإعدادية الزراعيّة.

ثم تطوّرت لاحقاً إلى ثانوية زراعيّة، واستمر الطلبة بممارسة جميع الأعمال والأنشطة الزراعيّة، كمنهاج مقرّر إلى جانب العلوم الأخرى.

وكان الطالب يتعلّم فيها إضافة إلى المواد العلميّة والعملية، أسلوب الحياة الجماعية والتعامل مع الآخر، وكيفية تنظيم الوقت واستغلاله بصورة أمثل.

ولذلك كان حملة الثانوية الزراعية، يتفوقون على أقرانهم من حملة الثانويات الأخرى بالتأقلم مع الحياة العسكريّة أثناء خدمة العلم.

أمضى مجتبي في تلك المدرسة ثلاث سنوات دراسية كفرد من أسرة كبيرة، تضم في صفوفها الثلاثة ما يربو على مئة وعشرين طالباً من مختلف المحافظات.

4.

تفوق (مجتبى) بامتحان الشهادة الثانوية، وهذا ما أهّله - إلى جانب إشارة لعبت دوراً - للقبول كطالب لدى (المدرسة الحراجية للشرق الأدنى) التابعة لـ (منظمة الأغذية والزراعة الدولية) في بوقا أيضاً، والتي تضم طلاباً يحيون فيها حياة داخلية، من مختلف أرجاء الوطن العربي، وبذا أتيح له الانخراط مع أناس يختلفون في لون بشرتهم وأعمارهم وهوياتهم السياسية والاجتماعية.

(كورتيش) مهندس حراجي جزائري، جاء مع الاستعمار الفرنسي ولم يعد معه، بل بقي يعمل لدى دائرة حراج اللاذقية.

اصطحب مرةً طالبة المدرسة بجولة عملية باتجاه بلدة (كسب الفرنلق) وأوقفهم على الطريق، في موقع (عبد الناصر) حيث قال من ذلك المكان أثناء الوحدة السورية المصرية كلمته المشهورة (دي الجنة).

من ذلك الموقف كان البصر ينزلق انحداراً بخط مستقيم على قمم الأشجار الصنوبرية حتى تنغمس أقدامها في ماء البحر على شاطئ (البسيط) الذي يبدو من ذلك الموقف كسهل زراعي كبير.

أوقفهم هناك وقال: (متّعوا بصائرکم وأبصارکم يا شباب، فالله إن أحبَّ عبداً أطلعه على ملكه).

ثم تابع السير بهم إلى غابة (الفرنلق) المتعددة الأنواع والأصناف، من أشجار وشجيرات وأعشاب وحيوانات بريّة وطيور، إضافة إلى المياه العذبة المتدفقة في أكثر من مجرى فيها.

كانت غابة عذراء، عالية الأشجار، عالية الكثافة، لدرجة تقل فيها الإضاءة منتصف النهار عن إضاءة القمر على الأراضي الجرداء في ليلة الكمال.

ولذلك أطلق عليها البعض اسم (الغابة السوداء) تيمناً بغابة تحمل الاسم ذاته، في ولاية (بافاريا) الألمانية.

اصطحبهم إلى تلك الغابة، واختار منها بقعة تمثلها. ووقف على جذع شجرة كبيرة مرمية على الأرض بسبب موت طبيعي، وباسم الغابة قال:
أنا الغابة يا شباب، والغابة خير معرفّ بنفسها، أرحب بكم، وأدعوكم للقراءة في كتابي المفتوح:

انظروا إلى الأعلى، لتروا تيجان أشجاري الصنوبرية الباسقة المشوقة تتداخل وتتشابك فيما بينها، وأكوازها الثمرية الناضجة تتفتح وتشر بذورها على الأرض، لتتبت بادرات صغيرة من جديد.

واعلموا أن سوق أشجاري هذه قد تساوت واستقامت بسبب التنافس فيما بينها على الضوء والهواء، ولاحظوا كيف تقلّمت طبيعياً بفعل الفطريات والأشنيات التي تجد في الأجواء الرطبة الظليلة مرتعاً خصباً لنشاطها.

وانظروا إلى الطبقة النباتية التي تليها بالارتفاع، من الأنواع المتحملة للظل كيف تنمو في ظل الطبقة السائدة.

وعلى سطح الأرض تجدون النباتات المحبّة للظل، كالسراخس والبنفسج والخزامى والفطور.

تحسّسوا بأقدامكم لتعرفوا مدى سماكة الدبال المتراكم بفعل تساقط مخلفاتي العضوية من أوراق وأغصان وقشور وثمار... وهي آخذة بالتحلل بدرجات متفاوتة بفعل الرطوبة والكائنات الحيّة الدقيقة الرميّة.

ثم انظروا إلى قباب الفطور المختلفة الأشكال والأحجام ومظلاتها، التي تنمو على أرضي وعلى أرومات أشجاري الميّنة الآخذة بالتحلل، والتي يشكّل بعضها غذاء عالي الجودة للإنسان، وبعضها شديد السميّة له، والتفريق بين أنواع الفطور يتطلب دراسة علميّة وخبرة.

تشمّموا رائحة التخمرّ والتعفنّ الناشئة عن تحلل المواد العضوية المعقّدة التركيب، إلى عناصر أوليّة بسيطة، تمتصّها الشعيرات الجذريّة المندسّة في التربة بعد انحلالها في مياه الأمطار.

تنسّموا عييري الذي هو مزيج من روائح البنفسج واللافند وعطر الصنوبر. هذي أنا الغابة يا شباب. اقرؤوني جيداً، وأحسنوا استغلالتي، كي أستمر بعطائي لبني البشر، وأقدم لهم أسباب الحياة من أوكسجين وماء وغذاء ودواء، وورق، وكساء وكحول، وخشب، ومنافع أخرى لا تحصر.... ولا أطلب منكم مقابل هذا شيئاً، سوى أن تحسنوا استثماري، فأنا أرمّم نفسي بنفسي، حتى لو عرضتموني للحريق.

وأثناء ذلك اندفع شحروران من ذوات المنقار الأصفر على شجرة (قطلب) غرداً وحطّاً غير بعيد على شجرة (عبر) وأخذاً يتقافزان بتناغم لذيذ، بطريقة شيطانيّة لا يخفي سرّها على أحد، وهما يقولان: «كم هي ممتعة الغابة، كم هو لذيذ الدفاء، كم هي جميلة الحياة»!!

حكى أن المستشار الفرنسي في الثلاثينيات من القرن الماضي زار غابة (الفرنلق) وكان كلما توغلّ فيها - وفق من رافقه - ازداد انبهاراً بجمالها. وأنه قال في حينه (لا يوجد في كل أنحاء أوروبا بقعة طبيعية بمكوناتها أغنى ولا أجمل).

ووجه فوراً بشق طريق خاص من طريق عام كسب - اللاذقية إليها،
وأقام فيها سداً حجرياً تندفع إليه المياه بقوة عبر الجداول، من القمة إلى
الأسفل.

وما زال المكان يعرف بسد المستشار، وما تزال آثاره باقية.

5.

دعت (الحكومة الألمانية) المدرسة الحراجية بطلّابها ومدرسيها وإدارتها إلى مخيم عمليّ صيفيّ في ربوعها، للاطلاع على كيفة إدارة الحراجها، والنظم التي تتبعها في ذلك. وكان من عادة (مجتبى) الذي لم يكن طالباً مشاكساً، كما لم يكن منطوياً خاملاً، أن يجلس أثناء الرحلات في مؤخرة الحافلة، ليتاح له النظر عبر الزجاج إلى الطريق وما حولها، ملوحاً بكتا يديه لمن يراه، والحافلة تسير.

وقبيل السفر بحافلة المدرسة (كانت منظمة الأغذية والزراعة الدوليّة) المسؤولة مالياً عن المدرسة، قد هيأت الظروف المناسبة من (استقبال على الحدود، مرافقة، مبيت، إطعام، جولات...) لدى كل من دول (تركيا - بلغاريا - يوغسلافيا - النمسا).

من تلك الرحلة حمل (مجتبى) معه القصص والذكريات، كما حمل معه المعارف والعلوم.

مرّت الحافلة بالبيوت والمزارع المنعزلة، بالأبنية الخرية، بالقلاع، بالمصانع، بالمدايح، بالغابات الواسعة، بالأنهار والشلالات والسدود، بالمدن الصغيرة والكبيرة. بطرقات وشوارع على جانبيها أشجار حراجية عالية، وأخرى على جانبيها أشجار مثمرة مقرّمة....

كان الطريق في سهول وأودية، وتلال (لواء اسكندرون) يمر في أراضٍ زراعية خصبة، متلونة بألوان المحاصيل الزراعية، والأشجار المزروعة فيها، التي يغلب عليها اللون الأخضر، وأخرى كانت حديثة الفلاحة، والمحارث الفلاحية متروكة فيها إلى الغد، بعد أن فكت الأنبار عن رقاب الثيران. كانت الغابات الكثيفة تنمو ملتفة، وكانت كذلك الزهور البرية على جوانب الطرقات، وأشجار الزعرور والإجاص البري والسّماق على المنحدرات..

وكانت المياه العذبة، مصدر الخير والنماء تتدفق عبر أنهار (العاصي، الأسود، وكثير غيرها من الأنهار والينابيع) تروي الأراضي، وتمتع كل راغب بالاستجمام وتترك غصّة في حلوق آخرين وقلوبهم..

وعلى زنود سواحله (اللواء السليب)* رأوا مدناً كبيرة تغفو وتنام هادئة حانية على أبنائها، بعد أن غسلت مياه البحر لها أقدامها. وهي تتهد بأسى... تطلّع مجتبي إلى مياه شواطئ (اللواء) وأواجهها التي تولد حزينة، ثم تموت حزينة، ثم تولد، ثم تموت، إلى أن ضاعت نظراته في مداها الواسع. كانت عيناه وأذناه وأحشاؤه تصرخ، ورذاذ دافئ يتساقط على شفثيه، وكانت رائحة الراتج التي تسيل من شقوق أشجار الصنوبر المتواجدة طبيعياً قرب الشاطئ، تملأ الهواء بالعطر.. فقال في نفسه:

* لواء اسكندرون: منطقة جغرافية في الزاوية الشمالية الغربية من سوريا، متاخمة للأراضي التركية، مساحتها 5403/ كم² ساحلية جبلية. سياحية زراعية، سهولها مروية، تربتها غنية.

ولخليجها الذي تشير إليه (قبرص) بإصبعها أهمية كبرى عسكرية واستراتيجية سلمتها (فرنسا) - التي كانت تدير شؤون المنطقة. بمقتضى الاتفاقيات الدولية - إلى (تركيا) الأتاتوركية عام 1936، لإنهاء النزاع الدولي على حساب العرب، وإرضاء (لكمال أتاتورك) الذي قاد تركيا بحملة تغريب، ممعنة بعدائها للعرب، ممعنة بعدائها لكل ماله صلة بالتراث الشرقي، بما فيه أحرف الكتابة العربية.

- يجب أن يبقى هذا البحر هائجاً، ويبقى هديره يصمّ الآذان...
ومن التراب سمع صوتاً طويلاً محزوناً، متوسلاً، شبيهاً بالتهنّد (أعدني،
أعدني، أعدني).

إنه لمن أقسى الأشياء، أن يجد الإنسان أرضه، وهي تسلخ عنه، وتسلخ
عن ناسها، عن بعضها، عن حجارتها، عن عشبها، وتغتصب.

ثم صفّق ديك بجناحيه، وصاح مراراً بغضب. كان واضحاً أنه قد ملّ
الليل الذي طال أكثر مما ينبغي، فأخذ ينادي الشمس كي تبزغ.

ومن على الضفة الآسيوية لمضيق (البوسفور) ذات صباح قادم لتوه من
السماء - أثناء تألف الليل والنهار لتشكيل اليوم - مترع بمحبة الله، صعّدت
الحافلة بمن فيها على العبّارة البحريّة، واسطة الوصل الوحيدة - في حينه -
بين القارتين الآسيويّة والأوروبيّة. وسط صمت مطبق من الجميع، كي لا
تضيع لحظة واحدة من المشهد المتصف بالوحدانيّة.

يا لهذا الجمال الساحر، إنه من صنع إلهي، تمّ في الزمن الغابر جداً، في
اليوم الخامس للخلق، على إيقاع رباني قدسيّ، قبل أن يتفرّغ الإله في اليوم
السادس لخلق الإنسان من طين. كان الاستمتاع بالمشهد منعشاً للذاكرة،
ودافعاً بالخيال إلى البعيد البعيد. كان الزمن والصمت والبوسفور في حالة
تعاون آخّاذ، كالحضور اللامرئي وهو يحوّم. ولهذا تراخت الركب تحت
الأجساد، وانبهرت الأنفس، من جمال المشهد، من قمّة الغبطة التي لا
يمكن للإنسان أن يسمو إلى أعلى منها.

كان الضباب المتبخّر صباحاً، يملأ الأودية الأوروبيّة، ويطوّف الهضاب
الموحشة والسفوح الجبلية يعيق سير الحافلة، ويغمرها كلما أوغلت شمالاً.

وعلى رصيف الشارع قرب مدينة (صوفيا) عاصمة (بلغاريا) لم تستطع
واحدة من النسوة - اللواتي كنّ يعرضن بعض الفاكهة من إنتاج المزارع
الجماعيّة - تأمين وعاء لمجتبي ليضع فيه كمية قليلة من ثمار التفاح اشتراها
منها، لأن الأكياس الورقيّة والبلاستيكية لم تكن منتشرة هناك في حينه.

لن ينسى مجتبي تلك الوجبة من السمك، مع كأس من شراب التوت الأسود، التي دعاه عليها أستاذ في كلية الغابات في جامعة (بيوغراد اليوغسلافية) وقت الغداء، بعد أن كانا قد تعارفا إلى بعضهما بأنهما حراجيَّان، بالإشارة والأسماء العلميَّة لبعض الأشجار الحراجية القائمة على جانبي الشارع.

وذلك في مطعم مقابل للشرفة التي كانا قد وقفنا تحتها درءاً من المطر. وبعد الغداء ودَّع كلُّ منهما بعضهما وذهب كل منهما في طريق. وما يزال بذاكرته أن ذلك الرجل كان متوسط العمر، معتدل القوام، حسن الهمدَام.

قرب العاصمة النمساوية (فيينا) دخل مجتبي وزميل سوداني له حانة كبيرة، لتناول كأس من الجعة، وجلسا على طاولة صغيرة في نهاية الحانة، لأنها كانت غاصَّة بالمرتادين.

زميله (أبو الشوق) كان كستنائي اللون، طويل القامة، ضخم الجثة، برقبة عجل، النصف الأمامي من رأسه أصلع بالولادة، والنصف الخلفي يكسوه شعر أسود أجعد، أفضس الأنف، سميك الشفتين، على كلي صدغيه ثلاث إشارات لكيّ صغير (علامة القبيلة) أي أن كل ما فيه كان ملفتاً للنظر.

وقبل إفراغ كأسيهما اللتين كانت النادلة قد جاءتهما بهما على طبق صغير، جلبت لهما طبقاً آخر تعلوه كأسان كبيرتان.

قتل (مجتبي) يده أمامها متسائلاً عن سبب ذلك؟! فأشارت إلى رجل جالس على طاولةٍ فرديَّة قرب مدخل الحانة، وهو يبتسم رافعاً كأسه لهما، فابتهج أبو الشوق. تساءل مجتبي في نفسه وهو يتأمل رغبة الجعة التي علت سطح كأسه التي قدمها إلى (أبي الشوق) - حيث أفرغ كأسه بثوانٍ - عن السبب الذي حدا بذلك الرجل لهكذا فعل.

ولما ألحقت النادلة ذلك الطبق بطبق آخر، اعترض على ذلك، مشيراً بسبابته لها، ألا تعيد الكرة الثالثة.

غضب (أبو الشوق) الذي بدا مسروراً بذلك، والذي كان من عاداته أن يشرب الكأس تلو الكأس فوراً، وقال - محتداً لدرجة لفت انتباه من حوله - (ميصحش يا مجتبي الراجل عايز يكرمنا، ميصحش نرفض، أنا أتكفل بالشرب).

وعند خروجهما، عرّجا عليه ليشكره، فوجداه بقايا عظام في جسد ذابل كله جلد، سكير تلاشى ولم يبق منه سوى شاربه الكث، يتحرك ببطء كحركات ثعبان دقّ رأسه.

وقف قباليهما مبتهجاً، واضعاً يده على صدره قائلاً: (مسلمان والحمد لله) مشيراً بيمينه إلى كل من في الحانة، ماداً سبابته كسبطانة بندقيّة وهو يقول: هؤلاء كلهم خنازير، يستحقون الإعدام رمياً بالرصاص، مطلقاً من فمه أصواتاً تمثل رشاشاً آلياً.

فما كان منهما إلا أن أدارا ظهريهما له وخرجا.

وحينذاك قال مجتبي: لقد أحسّ الرجل بأنه قد أدّى بعمله هذا الفروض الخمسة، وضمن الجنة بصكّ غفران خاص.

(نوزاد بابان) طالب من شمال العراق، تجاوز سنّ الأربعين، مرحة روحه، حاضرة نكته، طلب من النادلة لدى مطعم في بلدة جبلية في (ليوبليانا) بيضاً مسلوقاً، كي يخلو طعامه من الحرام، فلم تفهم ما أراد، لا باللغة العربية ولا بكل اللغات التي يعرفها، فما كان منه إلا أن نهض عن كرسيه، مقرّضاً على الأرض، ماداً يده اليمنى إلى مؤخرته مقوقياً كالديجاجة، وجامعاً أربعاً من أصابع يده اليسرى أمامها كالبيضة. فعمّت المطعم موجة عارمة من الضحك، وراحت النادلة تقوقي ذهاباً، وإياباً، مترنحة كفراشة تشوى بين الطاومات، والرواد يقهقهون ويصفقون.

.6.

في ألمانيا استقبلوا في مدرسة حراجية، على غرار مدرستهم في بلدة (تراونشتاين) الواقعة على أقدام (جبل الألب) الذي هو بمنزلة مرقب مائل فوق سطح أوروبا.

وبوصول الحافلة إلى مدخل المدرسة، تجمع حولها عدد من الأطفال والصبايا والشباب. وهم ينظرون بفضول إلى الكتابة العربية على جسم الحافلة، وإلى أشكال وألوان الشباب النازلين وهم يغنون ويضحكون بأصوات عالية.

وكعادته (مجتبي) وهو في مؤخرة الحافلة، لَوَّح بيده إلى صبية كانت تقف متفرجة خلفها، فجأوبته متقدمة باتجاه الباب، وانتظرت بجانبه تراقب النازلين، إلى أن جاء دوره آخرًا.

اقتربت منه مسلمة بابتسامة ملء فمها، ووقفت إلى جانبه وهو ينتظر دوره لاستلام (شنتته) من بطن الحافلة.

أمسكت (بالشنتة) من طرف، وأمسك هو بالطرف الآخر، وتقدما بها سوية حتى باب المدرسة، فتوقفت معذرة عن الدخول، بإشارة من عينيها. وبالإشارة أيضاً، استأذن هو أيضاً، ليذهب ويغتسل من أثر السفر، ويبدل ثيابه ويعود، فأومات بالموافقة.

كانت بين أترابها هي الأجل، في حين لم يكن هو كذلك بين زملائه، ولم يكن مظهره يوحي بأنه في بحبوبة ماديّة، وكل ما كان يميّزه، عيان خضراوان ووجه منير، تخيلها وهو يستحمّ، كيف وثبت مندهشة بمجرد أن لوّح لها بيده، وكأنها شاهدته بالحلم ليلة البارحة، وكيف تقدمت بسرعة وجرأة إلى باب الحافلة، تعد النازلين إلى أن جاء دوره، وكيف مدّت يدها مصافحة، وكأنهما اعتادا على ذلك منذ أن كانا طفلين، يلهوان بالحديقة.

بدت كفتاة غادرها حبيبها منذ وقت طويل، وفجأةً تراه أمامها وجهاً لوجه. قطع تفكيره هذا بسرعة بنصف حمام، ليرتدي ثيابه الداخلية كيفما اتفق، قبل أن تصحو وتغادر.

لكنه فوجئ بها وهي تندفع لملاقاته، على أول درجة من درجات السلم، فتلتقطه من يده وتخرج به خارج سور المدرسة، إلى مقعد على الزاوية الشمالية من الغابة المجاورة، يطلّ على مبنى المدرسة وباحتها. لم يصدّق عينيه، ولم يقدر أن يغمضهما، وبقي منتشياً بالرائحة التي تبعث من أنفاسها كرائحة جوز الطيب.

بهت مجتبي - الذي كان قد حمل معه تديّن شعب أرض نائية، ونظله، والذي لم يكن قد مرّ عليه موقف كهذا - وتوردت وجنتاه، وازدادت عيناه الخضراوان اتساعاً وإشعاعاً كمن يرى معجزة.

وعلى المقعد أطرق رأسه مركزاً عينيه على قدميها المتلاصقتين. فشعر وكأن الكون قد توقف عن دورانه، ولم يدر ما يفعل.

شيء ما بنظراتها تملّكه تماماً، ولم يعد قادراً على إبعاد نظره عنها. انزلقت عينها عليه فأغرقتة، كاد أن يهرب، كاد أن يصرخ، أيتها اللحظة هل أنت الحب؟! هو لم يكن هو حينذاك.

أحسّ بحرارة يدها. عندما وضعت كفها تحت ذقنه، رافعة رأسه إلى الأعلى، فتقابلت عيناها، وأخذت تخاطبه بكلمات متلاحقة ومنتالية. فهم من موسيقاها أنها غزل، فقال في نفسه:

أيتها الألمانية لقد أشعلت في قلبي ناراً لا تطفئ، ناراً تشع في نفسي الهيبة والرهبة. تحدثي، تحدثي، افتحي فمك، لا تتوقفي، فأنا بعدوبة صوتك أستمتع.

كانت الشياطين تتصارع في داخله وتصرخ، لا تتردد، لا تترك السعادة تفلت من يدك.

أصبح رأسه كالجمر، وكفها لا يزال أسفل ذقنه، وشعر بأن عليه أن يفعل شيئاً، فلم يفلح، لأن درساً كهذا كان الأول في حياته، ولأن رفاقه كانوا ينظرون إليه من وراء زجاج النوافذ.

ظلت نظراتها الحادة تخترقه، وشعر بنفسه أعزل عارياً، لأنه رأى في وجهها ثقة الأنبياء وبسالتهم، وعليه أن يحافظ عليها نقاء وطهارة. هبّ في أعماقه حنو لا يقاوم، وكلمات هائلة من الحب والغزل وصلت حتى حلقه، لكنه لم يعرف أسلوباً لإيصالها. ثم تجرأ وفتق خياطة شفتيه، مشيراً إلى نفسه أنه (مجتبي) متسائلاً عن اسمها بإشارة من يده، فأجابته (أليفريدا).

كانت ناعمة الملامح، فستقيّة الفم، دقيقة الأنف، غزالية العنق، معتدلة القوام.

وحيثما حدّق بعينيها السماويتين، وشفتيها الحائرتين بين التبسم والصمت. توقف الزمن، وأدرك لغة الحب التي تفهمها كل الكائنات، وأحس بأن قلبه قد أحبها قبل أن يراها، وأنها هي التي يبحث عنها بين طيّات الكتب.

وعندما تلبدت السماء بالغيوم، ومن دون إنذار بدأت الأمطار بالهطول،
قاما عن المقعد، ذهبت إلى بيتها المجاور، وانسلّ داخلًا إلى المدرسة، دون
تحية أو وداع.

كان في العشرين من عمره، وهي في السادسة عشرة، وكل منهما
مراهق، هي مراهقة بالعمر، وهو مراهق بقلّة التجربة.

اجتمع رفاقه حوله، متسائلين كيف تم هذا الحب بهذه السرعة؟
بعضهم قال: قدر ساخر، وآخر قال: هذا الحب ليس حقيقياً بل هو قصة
من وحي الخيال!

نام مجتبي متردداً متشظياً في نفسه، لا يدري كيف سيتصرّف غداً دون
أن يقع بالخطيئة.

في صباح اليوم التالي، اصطحب خبير حراجي، الطلبة إلى إحدى
الغابات وأخذ يشرح لهم الظروف المناخية السائدة، وواقع حال الغابة.
الجميع كان يتابع الشرح، الجميع كان يصغي السمع باستثناء
(مجتبي) الذي لم يكن يفقه ما يرى، ولا يسمع إلاّ دنين أصوات آتية من
بعيد، كان مأخوذاً (بأليفريدا) عن كل شيء.

كان يبحث عن ذلك الشيء الغامض الذي جعلهما منذ اللحظة الأولى
متحابين. كان يراجع فيها ما فهمه خطأ من عينيها مساء الأمس (أيها
الغريب الذي لم أعرفه قبل الآن، سأجعل من هاتين العينين، أرجوحة لك،
تبقى فيها ليل نهار) كان يستحضر النظرة الأولى التي رآها داخل الحافلة،
نظرة حبيبة شقيّة ولم يكن يرى غيرها.

كان في كل ليلة يمضيان مساءها على ذلك المقعد، يستقيظ باكراً
ويسير عبر شوارع (تراونشتاين) تقوده قدماه على غير هدى، تحت السماء
المضبة ورذاذ المطر. مصغياً للأنفاس الهادئة النائمة للمدينة، كان يسمع

بعض العشاق وهم يغنون على موسيقاها الهادئة عبر النوافذ، أو جالسين على مقاعد المنصات. وهو يستعيد صورة (ألفريدا) وصوتها من المساء، فيراه أمتع من وشوشة الريح على أشجار الصنوبر.

حيّاهم مرةً بابتسامة عريضة، وبيع بعض الكلمات غير المترابطة التي كان قد تعلمها لأجلها، وصافحها دون زيادة، تاركاً يده تتهدل على جانبه كأنها قطعة من خشب، ثم اقترب منها على المقعد دون التصاق، فأخذت أصابعها الناعمة تداعب أطراف أصابعه، فأحسّ بأنه يداعب طحالب ماء أو فروة هراً أليف.

وحيثما امتدت يدها إلى مناطق أخرى من جسده، تحول فرحه إلى حزن قائلاً لها بعينيه:

أيتها الحوريّة اتركيني أراك مقدّسة، ملاكاً طاهراً منفرداً في الكون.

ومثلت أمامه صورة والده، حينما منحه بركته وهو يغادر القرية، قارئاً بعينيه أملاً بعدم الانحراف.

ذلك الأمل الذي تجذّر رقيقاً عليه في أعماقه، وعاهد نفسه على الالتزام به، منذ أن غادر القرية للمرّة الأولى.

ورأى روح قريته المعلقة على سفح جبل، والشمس تقرضها كل ظهيرة. وتشخص له منتصف ليلة رأس السنة الماضية، وهو بجانب موقد الحطب، وأصوات صراع عوامل الطبيعة، من رعود ورياح وأمطار، تصفع أغصان الأشجار التي تحنو على سطح البيت الترابي، وتتناهى إلى سمعه كأعظم موسيقا بالأرض، وهو يتهدج آيات من القرآن الكريم.

مرّ كل هذا وغيره، كشريط سينمائي سريع في مخيلته، فاحتمد في نفسه الصراع، وقام عن المقعد ليكتشف أنه قد تبلل بماء المطر.

ليلتها لم يستطع النوم، كان مشوشاً مستثاراً متوتراً، كان في حالة من التشظي الموجه، حائراً بين (أليفريدا) وبين ما بداخله من أفكار، وعليه أن يقرر، عليه أن يختار، بين ما نشأ عليه، وآخر يشغفه فعله، ثم صدر القرار:

(مجتبى أعرض عن هذا، واصمد في وجه الرياح والأمواج والمغريات فأنت لغير هذا خلقت).

ومع هذا:

لم يكن يسمع من حركة الأمواج وارتطامها على جوانب الفندق العائم على أحد الأنهار الكبرى في ألمانيا، الذي بات فيه ورفاقه ذات ليلة - بدعوة من الدولة المضيفة - سوى هفرفة شعرها، ولم ير في المياه الحاملة للفندق، ولا في الأشجار الحانية على ضفتي النهر، سوى لون عينيها.
كان عشقه طوباوياً طاهراً لا يداخله زغل.

.7.

شركة تجارية ألمانية خاصّة، دعت المدرسة ذات ليلة، إلى حفل فنّي ساهر يقام في صالة فندق قريب من محل إقامتها.

وانزوى (مجتبى) في أحد أركان الصالة، ليخلو بخيال (ألفريدا) على طاولة ثنائية خاصّة.

ابتدأ الحفل بالموسيقا الهادئة أولاً، ثم ما لبثت أن صخبت وعمّت المكان، مختلطة بروائح الدخان والكحول وقرقعة الكؤوس، وانزلق الجميع إلى رقص جنوني مثير وراحت الأقدام تتحرك، والأجساد تصفّق، والصدور تتأوه، وراح الرجال والنساء يتدافعون ويتقاذفون.

اغتنم مجتبى الفرصة، ليلتقي بخيال حبيبته وهو يرتشف الجعة البرميلية الفاخرة بكأس خشبيّ كبير.

دار حول بعضهما وهما يتراقصان، حول المدرسة، حول الغابة المحيطة، حول كل شجرة وأجمة عرفاها معاً، ثم عادا إلى الطاولة وهو يشعر بعناق مجنون يزدحم في دمه، يدفعه ويوقفه، ثم يتحول إلى دفء ناعم يغطّيه ويغمض عينيه عليه، ويشم رائحته كخيمة خضراء فوقه، ثم يبتسم وحدهً ابتسامة عاشق صوفي.

استفاق من شروده ذاك، على يد ناعمة لصبيّة وحشيّة الجمال، تداعب كتفه، طالبة مراقصته، فجفل، وجحظت عيناه، واختلط عليه الأمر، منتشياً برائحة عطر نسائي مسكر، عبق فجأة، تخلل جلده وانحلّ في دمه. كانت عينها أشدّ بريقاً من النجوم، وجاء صوتها ناعماً عذباً خفيفاً، بنغمة صادقة يدعوه للرقص.

أحس بأن (أليفيديا) في داخله تراقبه، ومنذ قليل كانت تراقصه، وأي تعلق بغيرها خيانة.

ولما لم ينهض لمراقصتها، أدارت رأسه بيديها، باتجاه مركز الصلاة وهي تثرثر بكلمات متلاحقة، فهم معناها عندما رأى كل رفاقه والأساتذة والمرافقين والسائقين، غارقين بالرقص، غرق بدوي جائع في منسف دسم.

وحينذاك، ذاب جموده كما يذوب الثلج تحت الشمس المحرقة، وزعق قلبه كأنثى الصقر العائدة إلى العش لتزق فراخها، وقرر أن يقتل الجبن في نفسه، أن يقتل الخيبة، أن يقتل الكبت، أن يتغلب على ما يسمّى بالعبث، أن يدفن تأملاته في بئر عميقة، أن يحول الفشل والمرارة إلى عسل، والهزيمة إلى كبرياء.

وذلك بعد أن فعلت الجعة البرميلية فعلها في رأسه، وصارت الشياطين تتصارع في داخله صارخة: لا تترك السعادة هذه المرة تفلت من يدك.

شعر بفرح ملوّن، وأحس بالأصوات المتداخلة حوله، كأناشيد تفجّر في داخله طوفاناً، أن انهض.

فانتفض ككلب خرج لتوّه من بركة ماء، وانطلق في حالة هياج تام، بضحكة همجيّة فرقعها من أعماق أعماقه، محطّمة كل الحواجز التي في داخله، انطلق بنظرة منتشية مليئة بالغبطة.

قفز على قدميه بجسده المعتدل القوي، بعينين جريئتين كعيني نسر. طوّق جسدها بيده اليمنى، وجذبها إليه بقوة، وقدماه تضرب الأرض بشدّة،

ويده اليسرى ممدودة بطولها مفتوحة الأصابع. سهل حسان من داخله،
خارجاً من ملاجئ التعقل، وأخذ يرقص رقصة (زوربية) كمارد انطلق من
قمقم كان يحبسه سنين طوالاً.

وفجأة أضاء وجهها، وأخرجت طرف لسانها، ولعقت شفيتها واشتبكت
بالرقص.

ومثلما الشمس التي تدفئ الكون وتنيره، لاشتمالها على الحرارة
والنور، كانت تلك التي لم يتعرّف إلى اسمها، مغمورة بالذكاء والجمال.
وبمعنويات لم يسبق له أن أحسّ بمثلها، شعر بأنه لم يكن يتمتع جسده
فقط، بل كان يتمتع عقله وروحه أيضاً، عبر ممر الضحك والرقص
والغبطة، التي هي كيمياء القلوب.

سَلماً نفسيهما للرقص، وجسداهما منتصبان كشمعتين.

كان انفلتت منها أحياناً ليرقص بمفرده، هازماً كل خلية من خلايا
جسده على انفراد، ثم يميل بجسمه إلى الخلف، وهو يهتز حتى يلامس
رأسه الأرض، ويعود فيعتدل بالطريقة نفسها التي هبط فيها، وهي واقفة
أمامه تهتز أيضاً، فاغرة فاها وعينيها، ليعود ويتأبطها من جديد، ويستأنفا
الرقص الثنائي، ممسكاً برؤوس أصابعها، وهو يدور دورة كاملة من تحت
إبطها، ثم يهبط ويصعد على رؤوس أصابع قدميه، مقرصاً وناخاً إلى
الأرض بشكل متلاحق.

وبدورها انفلتت منه لترقص منفردة أمامه، وهو يقف متفرجاً عليها بلا
حراك.

فتحت ذراعها ونحت عنها أستارها، حتى التمع جسدها تحت الأضواء.
واقتربت متظاهرة بأنها ستلقى نفسها بين ذراعيه، لكنها كانت في كل
مرة تفر منه كملكة نحل يلاحقها سرب من الذكور، لترقص بعيداً عن
متناول يده، وهي ترتعد من رأسها حتى قدميها. وأحياناً كانت تثبت جذعها

بينما يدور ذراعها كل منهما حول الآخر، كحيتين تتزاوجان في الهواء بشهوانية.

كان جسدها يضيء وهو يتلوى، كان يصرخ ويعوي، مطلقاً موجات كهروأنثوية.

هي تتفعل وتغيب عندما تؤدي حركات الرقص، كان الجهد الذي تبذله يجعل العرق ينزّ ويتدرج كحبات اللؤلؤ من الجبين ومن بين النهدين، وهي تلمع وتبرق ثم تسيل كمهرجان المسك.

كانت كالفراشة تقفز وتطير ثم يحبس الكون أنفاسه. كانت في حينه مثل أمطار الربيع، كانت تصلي صلاة وجدانية من روحها.

ثم اندمجا من جديد متشابكي الأيدي، وهما يقفزان ويسقطان سوية في الهواء ليندفعا إلى الأعلى، وهما يحاولان التسامي ليتخطيا حدود البشر. إن الخمرة والجنس والأفكار، يضعن الإنسان في حالة هياج تام جسداً وعقلاً وروحاً، فالرقص كالخمر ينتشي به صاحبه، ويعيش في عالم خاص به، لا يأبه فيه إلا لأحلامه.

كان رقصهما رقصاً إبداعياً يوصل بالله، ويبدل المتع الجسدية، إلى متع عارمة للروح.

توقف الراقصون عن الرقص، وأخلوا لهما الحلبة، ليتمتعوا برقصهما، بحركات شادة، آنية الابتداع.

ثم قلب (مجتبى) الرقص الثنائي والمنفرد إلى (دبكة خرساء) جماعية بعد أن انتزع شالاً أزرق من شعر فتاة تراقبه، وقتله بين أصابعه، وعقده من طرفيه وهو يهتز، ثم مسكه باليد اليمنى، وباليسرى تعلقت شريكته، وما لبثت الأيدي أن تشابكت في صف طويل (من يجيد الدبكة ومن لا يجيد)، فخرست الموسيقى، وحلّ محلّها وقع الأقدام على الأرض.

كانت تلك الرقصة مزيجاً من ضربات القلب، وتراكم الدم، وهزّة الأدغال. كانت قصيدة وكل حركة تمثل كلمة.

ترك قيادة الحلبة إلى شريكته بالرقص، فأدارتها بنجاح، في حين أخذ يدور داخل حلقة الدبكة بحركات بهلوانيّة، ويقف قبالة كل راقص وراقصة، وهو يصهل كالحصان.

أخذت الخلايا تتبرعم، والصدور تتنفخ وتهتز، والأنف تتفتح كالأزهار، والحسّ يؤكد بأن الروح والجسد قد عجننا معاً.

كانت قدماء يرفان على الأرض كجناحي طائر، ومن حين لآخر كان يرمي بعض الصبايا بغمزة هادفة مشجّعة.

بنهاية الرقصة، أشار (مجتبي) إلى شريكته متسائلاً عما إذا كانت قد استمتعت بالرقص، فشدت إبهامها الأيمن إلى الأعلى وهي تبتسم، ثم سحبت كمية من الهواء، تكفي لفرس سباق.

كان هو الآخر مفعماً بالسرور، لأن المرأة التي تعكس أعماله بدقة متناهية أرتته نفسه بأنها قد بقيت صافية كالبحيرة التي تعكس السماء، وأنه برقصته هذه - التي كانت مجرد حركات مندمجة في الكون - لم ينكث بالعهد الذي قطعه على نفسه لوالده (رشيد) بل أكدت له بأنه يمكن للجنسين أن يتخالطا، أن يتحدّثا، أنا يتماساً دون إثم، وإن للرقص لغة يفهمها الجميع، لغة الحماسة، لغة الأعمال التي تؤدي بشغف لتحقيق نتيجة تنال إعجاب الآخرين.

كانت الأضواء والكاميرات قد غطت الحدث، ورصدت تلك الظاهرة النادرة.

حينما سكنت الموسيقى وانتهى الرقص، جاءه زملاؤه، مهنيّين ومستبشرين ومتسائلين، من أين لك هذا كله؟! فأجاب:

إنكم تعرفونني، وتعرفون بيئتي جيداً، وأنا نادراً ما أمارس الرقص، لكنني حينما تمّنتُ عن مراقبتها بدايةً، ورأيت انعكاس الخيبة على وجهها، شعرت بحيوان يفرك دمي وينغل بداخله، فأحسست أثناءها بأنني أقتل ذاتي، وأقف حائلاً بينها وبين الاتصال بالله، فتحرك بداخلي شخص آخر، وشعرت بأن عاملاً وراثياً بداخلي كان متتحياً، قد ساد واستأسد، دافعاً بي لممارسة الدور الذي شاهدتموه، والذي أردت من خلاله أن أفهم الناس هنا، بأننا قد ولدنا من نور الشرق، لنا هويتنا الحضارية والمعرفية، وموروثنا الإنساني، وأن الغرب لم يستق إلا على أنوارنا، وكنت أشعر في حينه بجذل غامر وكأني أغزو العالم.

لقد اكتشفت سرّ السعادة الكامن فيما يمارسه الإنسان من عمل، يدخل فيه السرور إلى الأنفس، دون أن ينسى نقطة الزيت في الملعقة التي (كان حكيماً قد أعطهاها إلى باحث عن سر السعادة، كي يجول في أرجاء قصره الكبير، ويتعرف على أسرار وتفاصيل ما فيه، ويعود بها إليه دون أن تتكفى).

كما اكتشفت إن الرقص ظاهرة روحانية، وأن الرقصة والراقص شيء واحد لا يمكن فصلهما.

ثم جاءه أستاذه الدكتور (إبراهيم) الذي كان قد أمضى عقداً من شبابه في (باريس) وملاهيها قائلاً:

اجتباك الله للخير يا مجتبي، إذ علوت بنا في عيون الآخرين هنا، وأفهمتهم عملياً بأن الشرقيين يقدرون الفن ويهتمون بالحياة، وأدهشتهم برقصتك الهجينية بين الرقص الغربي والرقص الشرقي، وألزمتمهم باجتبائنا لجائزة الحفل التي ستقدم لك الآن بمراسم خاصة، وحينذاك التفت إلى شريكته التي كانت مزروعة إلى جانبه، والتي لم يكن قد عرف اسمها بعد وقال:

هيا نستلم الجائزة معاً فنحن فيها شركاء.

ومع أن الألمان يخالون أنفسهم فوق كل شعوب الأرض، فقد تفاعلوا مع الواقع منهزمين.

لم تتكرر في حياته تلك الغبطة الجسدية والروحية التي غمرته بصفتها حينذاك من الناس ولا من الأفكار، ولا من الاتصال بالله.

وكالطيور التي اكتشفت نفسها أنها تمتلك أصواتاً عذبة، فلم تعد تتوقف عن الغناء، اكتشف مجتبي نفسه بأنه موهوب بالرقص.

8.

في الساعات الأخيرة من تلك الليلة، قرر مجتبي - وهو مضطجع على الفراش يراجع الحدث -، ممارسة الدور ذاته مع حبيبته (ألفريدا) بعد أن تمكن من إقناع المخلوق الذي اكتشفه في داخله، بالإبقاء على حضوره وسيادته*، وتأجيل تنحيه واختفائه إلى اليوم التالي فقط، حيث ستقيم المدرسة الذين هم بضيافتها حفلاً فنياً وداعياً لهم.

أراد مفاجأتها بالكنز الثمين الذي اكتشفه في داخله تعويضاً لها عن صبرها على استكائه طيلة الأيام التي كانا فيها معاً.

ليلتها وقبل أن يغفو سألته نفسه: ماذا تريد من (ألفريدا) وأنت ستفادرها بعد غد عائداً إلى الوطن؟! فأجاب:

سأبقى على حبها، سأراسلها دوماً، وسأعود إليها ذات يوم.

وهل ستبقى هي على حبك، بانتظار عودتك؟! فأجاب:

إذا كان معدنها مصنوعاً من مادة نقيّة، فإنها ستبقى ولن تتغير، أما إذا كان مثل انفجار كوكب في السماء، سرعان ما يتلاشى ضوءه أكون قد تلقنت درساً.

* العامل السائد والعامل المتنحي: مصطلحان علميان وراثيان، يشار بهما إلى الصفات الوراثية الظاهرة، والأخرى المتنحية لكل لكائن حي.

بدأت الحفلة، فأسرع (مجتبى) إلى المقعد الذي اعتادا الجلوس عليه، ليدعوها وقلبه يطير فرحاً، وعيناه تزداد إشعاعاً.. ولسان حاله يقول: الآن الآن سأسعد (ألفريدا) وأجعلها تتذكرني وتبقى على حبي ما بقيت.

تأخرت عن المجيء إلى المقعد، انتابه القلق، وأخذ يفرك أصابع يديه ببعضهما وهو يسمع الموسيقى الصاخبة الراقصة المنبعثة من صالة المدرسة.

قام عن المقعد، ثم قعد، ثم قام، وأخذ يزرع الطريق الذي اعتادا السير عليه داخل الغابة جيئةً وذهاباً.

التقى بابن خالتها الذي عرفته عليه سابقاً هناك - وكان يبدو عليه أنه مقهور منها هو الآخر - فقال له:

لا تنتظر (ألفريدا) هنا، لأنها هناك في صالة الرقص، مع واحد من زملائك إنها لا تستحقك، ولا تستحق حبك لها.

دخل الصالة راكضاً فرآها بين ذراعي زميله (علي) تتلوى كالأفعى. لم يُفاجأ بذلك، لأنه يعلم أن الأنفس البشرية ممزوجة من قبضتين متنافرتين أصلاً، لكنه تنهد وقال:

إن (ألفريدا) لا تشكل شيئاً في أسطورتى الشخصية، وأنا فخور بنفسى إذ تعلمت لغة بلا كلام، وجرى في كياني نهر جديد.

لكنه عرف بأنه قد تعلق بنسيج عنكوبتي، تمرق من أول زحّة مطر، واجتاحه ديبب أصمّ، وسيطرت عليه حالة من التلاشي. وعاد إلى فراشه يستجدي النوم دون جدوى، لأن فراشه قد امتلأ بأشواك نبات (الصبير).

لاحقاً جاءه زميله (علي) معتذراً بالقول:

التقيتها مصادفة عند مدخل الصالة، وأظن أنها كانت قادمة لتبحث عنك، وبما أننا كنا سنسافر غداً ذلك اللقاء، وقد كنت قد علمت منك بعدم وجود ما يربط بينكما عملياً، فقد دنوت منها قائلاً:

أنا اسمي (جورج) أنا مسيحي، وصديقي (مجتبى) مسلم متزمت،
وفتحت لها ذراعى، فاندفعت رامية نفسها بينهما.

وأخذ زملاؤه منذ ذلك الوقت يدعونه (بصاحب العشق العذري في ألمانيا).
كان مجتبى في شيخوخته، وبعد مضي أكثر من نصف قرن على تلك
الواقعة يغمض عينيه، فتأتيه أليفريدا، وتجلس بجانبه على المقعد، فترنّ
حروف كلماتها في أذنيه، وهو يتطلع بشغف إلى شفّتها اللتين تزّمهما أثناء
النطق، وإلى عينيها السماويتين، ثم يسأل نفسه:

هل أخطأت إذ لم أمسك بتلك الفرصة النادرة منذ البداية؟ ثم يجيب
نفسه، لا أنا لست نادماً، مع أنه ظل في قرارة نفسه ساخطاً على زميله
(علي) - الذي كان قد توفى باكراً - ثم يبتسم راضياً، لأنه كلما بعد زمن
الفراق تطهّرت الذكريات وتحولت اشتياقاً.

9.

واقعة في ألمانيا، تركت في نفس (مجتبى) تساؤلاً ظل يحير.

بينما كان وزملاؤه يتناولون الشاي في حانة تلاصق بحيرة، أسفل قدم إحدى القمم الأليّة. بانتظار عودة المصعد الكهربائي للصعود إليها، تراءت له تلك القمة - تخيلاً - وعليها شرزمة من الخيول اللحميّة، ترعى مع صغارها، قرب بيت خشبي، أمامه فتاة غاية في الجمال.

ثم وعلى مدّ النظر وفي كل الاتجاهات، تراءت له غابات، وأودية، وقمم منبسطة، وأخرى مدبّبة، ومشاهد ملوّنة أخرى، تبدو كلوحة، أتقنت إبداعها يد فنان حاذق...

وفي المصعد كان منشغلاً بتقليب وتركيز تلك الرؤية في ذهنه، عن ما كان يحيط به من روائع.

وعند الهبوط على القمة من المصعد، دهش لدرجة الخبل، حينما رأى المشهد ذاته بتفاصيله التي تراءت له منذ قليل، ولم يعده إلى الواقع سوى نغمة صوت أنثوي آخاذ - لذات الفتاة التي كانت قد تراءت له أيضاً - يرحب بهم.

ولم يمكنه فهمه الضئيل بالفلسفة والتحليل النفسي، ولا فهم أي من زملائه أو أساتذته، ممن روى لهم الحادثة لاحقاً، من الخوض بتأويل ذلك اللغز واكتفى بالقول لنفسه:

إن أحلاماً كهذه، تكشف عن وجه الروح الحقيقي غير المصبوغ الذي يواجه الخالق، وإن مدارك البشر عاجزة عن الخوض في مجال كهذا.

10.

أمضى مجتبى بالمدرسة الحراجية سنتين متواصلتين من الدراسة العلمية، النظرية والعملية، والمخيمات الشتوية والصيفية والامتحانات المتصلة بها. مستخدماً حسه وعقله ويده، نال بنهايتها شهادتها بتفوق، وعيّن بسبب ذلك بوظيفة مراقب حراجي لدى (محطة البحوث الحراجية) في بوقا ذاتها، وكلف بمرافقة خبير حراجي روسي جاداً.

ذات يوم بينما كان والخبير ينفذان تجربة علمية في غابة كثيفة في بطن جبل ينتهي بقمة صخرية جرداء عالية، ومعهما اثنان من العمال، رغب بالصعود بمفرده إلى حواف تلك القمة لتفحص طبيعتها.

وعند اقترابه من القمة ارتعدت فرائصه، وقفز قلبه كقلب عجل شعر بخطر. ووقف شعر رأسه كالإبر، وذلك عند رؤية فخذ لحم طري لبقرة في لجّ صخرة كبيرة، لعلمه بأن فعلاً كهذا لا يقدر عليه سوى حيوان مفترس كبير.

قفز راجعاً وهو يرتعد إلى الخبير، الذي ضحك عند سماعه الواقعة وقال:

كنت ذات يوم كهذا في غابة سيبيريه، ومعني عاملان يفصل بيننا مجرى ماء ضيق، وإذ بنمر قادم نحوي على مهل، جثوت بسرعة على

الأرض، وتناولت الكلاشنكوف من كتفي، وسددتها نحوه، فأخذت تتراقص بين يدي للأسفل والأعلى، ثم غبت عن الوعي، لأستفيق على العاملين وهما يمسحان وجهي بالماء، وأستمع إلى ما غاب عني من تلك الصور الضبابية شيئاً فشيئاً، وهما يكملان لي الحكاية.

دنا النمر مني متمهلاً، وعند وصوله قلبي بين يديه، ولما لم يربي أثراً للحياة تركني وانصرف.

وحينذاك أدرك مجتبي معنى ما كان يسمعه في صغره من أبيه (النمر مهيب ما يتطلع بوجهه البارودة).

.11.

أمضى (مجتبى) في بوقا ثلث قرن من عمره طالباً وباحثاً ومدرّساً. تكاملت فيها شخصيته، واغتنت تجربته، وأثرت في وجدانه تأثيراً إيجابياً عميقاً، لدرجة كان يرى أن شيئاً من السحر يكمن فيها.

في بوقا أبدع مجتبى، وطوال الوقت الذي يبذل فيه الإنسان، يستولي عليه المرض الصباحي الذي يستولي على الأم المرضعة. فمنذ دخوله إليها كطالب في الثانوية. اعتاد النهوض عند الفجر، ونجمة الصبح تقطر على الأرض نوراً، وضباب خفيف يحوم على المحيط ويلفه، والقبرات تعلو في الهواء لتأدية الصلاة، ثم تغيب في الضوء الشفاف الروحي الذي يكسو الأشياء.

كان يسير باكراً ببطء في الحديقة، وعلى أرض الملعب والممرات يستحم عند الفجر بالندى، ونسيم الجبل يداعب وجهه، فتملأ السعادة قلبه، ويتوالى انهيار الطاقة الصباحية على نفسه وجسده، يسمع الصوت الناعم للنور الذي يتقدم في كل مكان، على الأرض، على الصخور، على الأشجار والنباتات، فيزيده ذلك ألقاً، ومن الله قربي...

وقبيل غروب كل يوم، كان يتجول وحيداً في طرقات المزرعة، وممرات البساتين، لأن الحديث مع الآخرين في هكذا محيط، يحط من قيمة الصمت المقدس.

كان يتجول ويدها معقودتان وراء ظهره، وعيناه تنظران إلى ما وراء ذلك الجمال... وهو يسير رويداً رويداً، وبين الفينة والأخرى كان يرمق إلى الأفق الصافي... والخط الأسود الذي يفصل السماء عن البحر.

كان يتجول في كروم العنب، والتين والزيتون، والموز والجوافية، والحمضيات المتوهجه بخضرتها الزاهية، والتي يملأ عبيرها الممزوج بالعطر الذي يسيل من شقوق أشجار الصنوبر والسرو، ويجعل من ذلك المحيط معطرة تفوح منها روائح كنفحات ربانية، بعد أن تضاف إليها روائح قاصدات الزيارة من مكان بعيد، للمتعة الروحية والحسية.

كانت مياه البركة تعكس أرجوان السماء عندما تميل الشمس إلى الغيب. وترتسم على سطحها ظلال أشجار (الكزورينا).

كان طنين النحل المتجمع على مداخل الخلايا يطرب الأذان بموسيقاه التي تتقاطع مع هديل الحمام الذي تحنو على برجه أشجار (الكافور) العملاقة.

كان يتوقف عند شجرة (الأريوكاريا) المزروعة في المساحة الفاصلة بين المبنيين، والمتميزة بنموها السنوي الطبقي المتوازن أفقياً وعمودياً (طبقة واحدة كل عام) ويحسب عمرها بعد تلك الطبقات.

كان مشهد مكوّنات بوقا والعبير العابق في سمائها يوقعان الصلاح في نفس أسوأ الناس، والصحة في جسم أشدهم مرضاً، والشباب في دماء العجائز.

كان التجوّل بين بساتين بوقا وحدائقها من أعظم المتع التي يتلقاها الإنسان لتكامل توائّمها مع جسده وروحه، لأن النعم التي تلتصق بعمق الذاكرة، تهبط عليها كهبوط الندى على الغضّ من الأوراق.

كانت بوقا بجسدها العذري تسبح في الهواء، والشمس تسقط عليها كعروس.

.12.

عاد (مجتبى) إلى بوقا بعد غياب زادت مدته عن العقدين يسترجع ماضيه، ويستمتع باستعادة المشاهد والذكريات، فلم ير، ولم يعرف من معالمها إلا القليل، وحتى الذي عرفه فيها كان عاجزاً عن ملامسة المشاعر فرحاً، فتحطم قلبه.

تحطم قلبه وهو يتذكر منظر أزهار أشجار اللوز الثلاثة ورائحتها قرب الساقية التي كانت تتفتح في باكورة الربيع عن تويجات شبيهة بنتف الثلج وهو يرى مكان كل منها عموداً بيتونياً مسلحاً.

تحطم قلبه وهو يتذكر عبق الأرض وقطرات الندى كحبات اللؤلؤ على أزهار الليمون مُعدة للنحل وليمة رحيقية. حيث رأى مكان تلك البساتين أبنية طابقيّة من الاسمنت المسلح ذي الألوان الفجّة التي تجأر طاغية على المحيط.

تحطم قلبه وهو يرى أوراق الزيتون الفضيّة قد ذبلت. وغطيت بطبقة من غبار الإسمنت، وأشجار السرو المشوق قد يبست أو قطعت، والشوكيات التي تخفي تحتها الأفاعي، قد طغت على الحدائق الغنّاء، واكمدّ لمعان الحجارة والصخور.

تحطم قلبه وهو يرى البركة المستطيلة العميقة التي كانت تعباً بماء نمير من العين المجاورة، والتي كان ورفاقه يخلعون ثيابهم حولها، ويغطسون فيها حابسين أنفاسهم، قبل أن يصعدوا برؤوسهم إلى السطح مستجدين هبة هواء، وقد تهدمت جدرانها وملئت بالحجارة والأوساخ.

كان إحساسه قبلاً وهو يسير في أية زاوية من زوايا بوقا. أو بأية نقطة فيها، وكأن الأرض والسماء تسيران معه وهو يرتعش إجلالاً كوتر قوس، وحينذاك كان يجد روحه ويتآلف معها، وهو ينظر إلى نصف قرص الشمس قبل اكتمال الغياب. كانت نسائم الهواء تطوف في سماء بوقا بحرية وعزم باعثة في النفوس العذوبة والغبطة والارتقاء، لا كما أحس بها أخيراً وهي تمضي متناقلة بين الأبنية الطابقيّة، كالشحادين التائهين الذين لا مأوى لهم. وقف ملياً أمام شجرة (السيكويا) التي كان قد غرسها بيده منذ عقود، أمام معهد الغابات (المدرسة الحراجية) وتعهدها بالسقاية والتظليل لعدة سنوات، وحينما انزلق بصره عليها من القمة حتى القاعدة وتبيّن أنها قد تعملقت، تحرك بين أصابعه زوجان من حبات سبخته الزيتونية، وتمتم بشفتيه (الحياة مراحل، وهذه الشجرة دليل على شيخوختي).

* * *

كانت (بوقا) بقعة خضيرة ساجية بهيميّة، يفرع إليها الناس من المدارس والشوارع المكتظة في المدن السوريّة.

المتضادات فيها كانت كلها تتصالح، تتكامل، تمتزج خالقة توافقاً، معجزاً سامياً، يوحى للزائر بالمتعة التي تحسّها شجرة ظمأى مغبرة، حيث تشفق عليها الطبيعة ويغسلها المطر.

هذا المعجز بدا (لمجتبى) - بعد غياب - هيكلًا عظيمًا صامتًا، سلخت جلده ولحمه أظافر الوحوش، تاركة منه آثار الفناء والتدمير، وأشباحاً

سوداء تثير الخوف والوجل، وتبعث في النفس الكآبة والقنوط، بعد أن تمّ قهر الجمال الذي تلاشى إلى اللانهاية.

ومن برج الحمام، وسقف الاصطبل المهجور، سمع طائر البوم ينبع عالياً، ابتهاجاً بالخراب، ورأى طيور الليل المثيرة للقرف تنام ملتصقة بسقف المتبن* ريثما يحلّ الظلام، فازداد صداع رأسه، وتصاعدت نغمة حزينة من الأرض، وبدأت الدموع تتسكب من عينيه.

من حقه أن يبكي دماً، من حقه أن يجنّ، وهو يرى اختلال التوازن بينه وبين العالم الذي اكتشف عكسه.

ثم تساءل بصوت مسموع يا إلهي:

كيف زحف كل هذا الشجع إلى (بوقا) كما تزحف الثعابين؟

كيف تتقلب الأشياء رأساً على عقب؟

كيف تحوّل النور، كيف تحوّل اللهب بهذه السرعة إلى ظلمة ورماد؟

شعر وهو يضع قدمه حيث كان يضعها سابقاً، بأنه قد فقد التآلف مع روحه وأن قلبه قد انكمش في زاوية خجلاً، وهو يتباطأ في دقائقه، وأن ركبتيه تتراخيان.

ورأى في هذا التحوّل نذيراً من نذر الأمراض والمجاعات والحروب والجنون، التي توزع رسلها في أنحاء العالم، مستهترة بآلام البشر، وروح الإنسان، والخطر المحدق بالحياة ذاتها. وقال في نفسه:

(إن العالم يتعفن، وحينما يتعفن يصبح من الواجب أن يزول، رحماك ربي وغفرانك).

* * *

* المتبن: البيت الذي تخزن فيه مادة التبن العلفية.

راودته أفكار مؤلمة، مختلطة مشوشة، أشبه بالإحساس بالألم تحت
وطأة التخدير، فمسح دمة سالت على خدّه بعد أن تدّوق طعمها المالح وقال:
بوقا: التي كانت بؤرة نور، جامعة جمال، مخزن معارف، تعلّمت فيها
الأبجدية الأولى لحب الطبيعة والعمل.

بوقا: التي تذوقت فيها لذّة التعلّم وبهجة التعليم.

بوقا: التي كانت فيها باكورة عملي فنجحت وأفدت.

بوقا: التي أطعمتني خبزها وغمرتني بدفئها.

بوقا: التي سترت عريي وجوعي.

بوقا: التي أمضيت فيها أجمل سنوات عمري.

بوقا: التي أرهفت مشاعري وحسي، وأزكت روحي ونفسي.

بوقا: التي حققت فيها الأمل.

بوقا: التي كانت سلاماً وحلاوة هائلة.

بوقا: التي كانت الشمس في مجراها الأزلي، تتوقف فوقها، لتقترض
منها النشوة واللفظ.

بوقا: التي كانت مصباحاً يتوهج في حالك الظلام، ألقاً ساطعاً ينير
المحيط.

بوقا: التي كانت نوراً تباركه الملائكة بين أشجار البرتقال.

بوقا: التي كنت أعتز بها وأوافيها ببطاقات حب متلاحقة.

* * *

بوقا الآن وبكل مرارة وحسرة:

دمة بعد أن كانت ابتسامة.

جرح نازف بعد أن كانت أغنية فيروزية.

كومة من الأنقاض تعافها الأنفس البشريّة.

* * *

إني أسمعها تصرخ وتطلب في صراخها النجدة.

أن انهض أيها الإنسان... إنها نذر الهاوية.

* * *

إني أكتب عنك يا بوقا:

ضحلة كانت كتابتي أم غنيّة.

قديمة كانت عواظي أم حديثة.

وحين أكتب:

أذوّق طعم دموعي.

ويرتجف قلبي بيدي.

* * *

وحينذاك تناهى إلى سمعه صوت امرأة تغني.

تغني موالاً مشبعاً بعاطفة حزينة منكسرة.

كان الصوت عميقاً وأجشّ وكئيّباً.

ملاً بوقا سوداوية، وهو يطلب النجدة والقصاص.

فتدلّت روحه من قمة رأسه.

وراحت تتردد في أن تطير.

أو أن تتجاوب مع أمر الموال.

لتحطيم الشر والفساد...

-13-

عمل (مجتبى) مع الخبير الروسي لدى (مركز البحوث الحراجية) قرابة السنتين، أحس خلالهما بالغبن والاضطهاد، لكونه لا يحمل مؤهلاً جامعياً، ولأن كل ما كان يشاركه الخبير به تخطيطاً وتنفيذاً وتحليلاً وكتابة، يخرج تقريره إلى العلن باسم المهندس الزراعي رئيس القسم كباحث والذي ليس لشهادته الجامعية أية صلة بموضوع البحث.

أحسّ بأن الشهادة الجامعية هي المعبر، هي الوسيلة لإيصال الآراء والمقترحات، والإصغاء إليها، فاستولت فكرة الحصول على شهادة مهندس حراجي، على حواسه ضاغطة ومسيطرة، دونما جرأة على البحث بالأين والكيف والتمت، إذ لم يكن يوجد في أية دولة عربية كلية للحراج، ولم تكن حالته المادية تسمح له بالتفكير في مسألة كهذه.

في خضم تلك الحيرة، سمع خبراً متناقلاً حول افتتاح كلية غابات لدى (جامعة الموصل) في العراق.

راسل الجامعة وزميل له (أحمد) حول صحة الخبر، وعن إمكانية قبول خريجي المدرسة الحراجية كطلبة فيها؟

ولم يتأخر الرد الذي حمل بشارة القبول، لافتاً إلى بعض التسهيلات المادية المتعلقة بالمطعم والسكن الجامعي.

وشجعه والده (رشيد) بالقول: (إن في هذا القبول إشارة خير لك فاتبعها).

* * *

اتكأ (مجتبى) على سريريه شاخصاً إلى اللانهاية. وكتاب قبوله
بالجامعة بين يديه يقرأه مرّة تلوى الأخرى.

اتكأ محاولاً التركيز لاتخاذ قرار مفصليّ في حياته، خائفاً مترقباً،
لأن مثل هكذا قرار قد يحمل المرء على الغوص في تيار جارف، نحو وجهة
لم يكن يتوقعها لحظة اتخاذه.

نام مهموماً وزوجته - التي أظهرت تضامناً معه - إلى جانبه، تخفف عنه
وهي في قرارة نفسها لا تريد له السفر.

نام مهموماً واستيقظ مذهولاً على بشارة وإشارة جاءت من أحد زملائه
بالعمل، حول إمكانية حصوله على إجازة دراسية بكامل الراتب من قبل
وزارته لوجود نص قانوني يجيز ذلك، وتطبق عليه الشروط المحددة لتنفيذه.

لقد استخدمت الملائكة فم ذلك الزميل - عنوة عنه - ليعلمه بذلك، مع
أنهما لم يكونا على وئام.

وحينذاك قال له والده (رشيد):

إن في هذا إشارة خاصة بك أيضاً، وأنت محظوظ يا ولدي، فلا تتردد
لئلا ينثني الحظ عنك.

ولضيق الوقت، أسرع بإجراءات إصدار تلك الإجازة، واستخراج جواز
السفر اللازم، لأن الدوام بالجامعة كان قد ابتدأ.

غير أنه أحبط إحباط عابر صحراء رأى سراباً حسبه ماء، وذلك حينما
أعاد له (مدير مكتب المحافظ) جواز السفر دون توقيع، ورفض مقابلته
لاستجلاء السبب.

لكن ذاك الإحباط ما لبث أن انعكس بهجة، حينما قيّض له في تلك
اللحظة، - وعن غير معرفة - من دخل بالجواز إلى المحافظ ثانية، وأعاد
موقعاً. فاعتبر (مجتبى) أن بذاك الفعل واحدة من الإشارات التي تلاحقه -

وإن لم يكن سابقاً يولي مسألة الحظوظ والإشارات أهميّة - فتعلّق بالجري وراء أسطورته الشخصية أكثر، وأحسّ بأنّ في تكوينه، في روحه، ثقة ترفض أن تمرّغ.

استلم جواز سفره، ومشى على الرصيف، ومعه مشيت ذاكرته، وعاودته الرؤية، وهو يفكر بسلسلة الإشارات التي رافقته، منذ أن كان راعياً للماعز في الغابات إلى:

المدرسة الابتدائية التي نال شهادتها، في العام نفسه الذي افتتحت فيه أول مدرسة إعدادية في المنطقة. وكيف تيسرت له إمكانية متابعة الدراسة فيها.

المدرسة الإعدادية التي قيض له - عند نيله شهادتها - من أرشده إلى وجود ثانوية داخلية زراعية في (بوقا) قرب مركز المدينة، بعد أن كان قد يئس من إمكانية متابعة الدراسة ولو بالحلم. بسبب ظروفه المادية وعدم وجود ثانوية بالمنطقة كلّها.

المدرسة الحراجية، وكيف تم قبوله فيها على رأس قائمة تضمنت أربعة طلبة آخرين، من مئات المتقدمين لمقابلة القبول، وذلك بسبب تحوّل التماس لصالحه، كان قد سعى به لدى (رئيس لجنة القبول) متقدم آخر يحمل كنيته نفسها.

كيف علم بقبوله في المدرسة الحراجية، وهو حديث التوظيف في غير محافظته وفي قرية نائية بعمق الصحراء، عندما كان قد قرر في نفسه الاستقالة لعدم قدرته على التأقلم البيئي والاجتماعي هناك، والعودة إلى القرية مهما تكن النتيجة. (عرف بذلك القبول عند رفض مديريته قبول استقالته، ونزوله إلى الشارع على غير هدى، ليجد نفسه أمام مبنى لمديرية حكومية أخرى، فيدخله من الضجر والقهر لتسوقه قدماه إلى لوحة إعلانات في بهوها، ويجد اسمه على رأس قائمة المقبولين بتلك المدرسة، وإن

عليه الالتحاق بها قبل استتفاذ المدّة المحددة التي لم يبق منها إلاّ يوم واحد،
وإلا فقد فرصته بالقبول).

وكيف أن عقله لم يصدّق عينيه للوهلة الأولى. فأعاد قراءتها ثانية
للتأكد. تمشياً مع قانون بسيط للرؤية:

(عندما تقع أمام عيوننا كنوز كبيرة جداً، فإنها لا تتبيّنُ بدايةً).
جال هذا في ذاكرته، وهو يسير على الرصيف، فتذكر مقولة فلسفيّة:
(من سعى بحق لتحقيق حلمه، لتحقيق أسطوره الشخصية، وقف معه
العالم بأسره).

ثم قال في نفسه:

إن المبدأ الذي يحرك الأشياء، هو روح العالم الذي يعطينا قوّة إيجابيّة،
عندما نكون قريبين جداً منه.
وتذكر قولاً فلسفيّاً آخر:

الإشارة: لغة يستعملها الرب مع بني البشر، ليريهما ما ينبغي فعله.

.14.

(مجتبى) وزميله (أحمد) بعد أن أنجزا ما عليهما، قررا السفر إلى الموصل بواسطة قطار الشرق السريع، الذي ينطلق من مدينة حلب في مواعيد محددة، وهما لا يعلمان ماذا كتب عليهما الزمن من أحداث عايناها لاحقاً وعانيا منها الشيء الكثير.

لم يكن للقطار من اسمه (السريع) نصيب، لأن سرعته لم تكن تزيد كثيراً، عن سرعة جمال متمرّس يقود جماله من على ظهر حماره، وهو يحدو لهم في ليلة مقمرة على طريق ترابي مستقيم، كما لم تكن مواعيده دقيقة لكثرة ما كان يحصل له من أعطال.

كانت المحطة غاصّة بالبشر، بعضهم يجلس على المقاعد، وبعضهم على الحقائق. وبعضهم على ما لديه من أشياء أخرى، مستمعين إلى الحركة الرتيبة لعجلات القطارات الحديدية، بموسيقاها المزعجة، وإلى صافراتها بانطلاقها المديد.

كانت الصالة المؤسسة منذ أن عرف العالم القطارات، عالية، مدفأة، تعج بحشد بشري - من مختلف الجنسيات والتوجهات - يصدر عنه وعن ما يحمله من أطمعة وأشياء، روائح كريهة.

البعض كان مسافراً. والبعض مودعاً، والآخر مستقبلاً يحمل أزهاراً فردية، أو باقات منها للقادمين.

وأمهات بدويات متلفعات ببطانيات متسخة، وأطفالهن على الصدور أو الظهور.

البعض كان يدخن بهدوء، والبعض يسرع الخطى باحثاً عن حبيب أو صديق، وآخرون يرقصون على إيقاعات الموسيقى المسجلة، لتقليل الأذى النفسي للوداع.

البعض يدخلون يقرؤون لوحة الإعلانات الخاصة بحركة القطارات وعلى ضوء ذلك يتصرفون.

كان دخان القطارات سرعان ما يذوب كثيفاً ثقيلاً، وصفيرها يعكر راحة الثلج والظلام (في ذلك العام جاء الشتاء مبكراً).

لم تكن عاطفة (مجتبى) حيال المحطة محايدة، إذ ظل يراها فرحة مريحة مهما طال الانتظار، كيف لا وهو آت إليها لينطلق منها لتحقيق الأمل، الذي طالما تمناه وحلم به، وهو مؤمن بأن الحياة سخية مع كل من يعمل لتحقيق أسطوره الشخصية، بالرغم من القوى الغامضة التي تحاول إثبات العكس.

وإن سرعة قبوله بالجامعة، وسهولة صدور قرار الإجازة الدراسية براتب، إشارتان إيجابيتان لتحقيق ذلك كما قال والده (رشيد).

جاء القطار وراح الركاب يتراكمون نحو أبواب العربات، تراكم الفراشات نحو النور.

عربات القطار كانت مقسمة إلى غرف صغيرة، في كل منها مقعدان متقابلان. يتسع كل منهما لستة أشخاص، وفوق كل من المقعدين لجهة السقف رفّ معدني، توضع عليه حقائب المسافرين.

وما زاد عن استيعاب الغرف من بشر، كانوا يقفون في الممرات على امتداد القطار.

على المقعد المقابل لمقعد مجتبي وزميله جلس عدة أشخاص بينهم سيّدة في الأربعينات، وإلى جانبها ابنتها الشابة. صفر القطار فتحرّكت عجلاته، منطلقة على سكوته وهو يشق عباب الظلام.

تعطلت التدفئة داخل القطار، صار الجو بارداً، ثم بارداً أكثر، وامتدت البرودة إلى جسد (مجتبي) فاصطكّت أسنانه، وارتعدت ركبته، وأخذ ينفخ يديه على غير طائل.

وفي الخارج كان الثلج يهوّم صعوداً وهبوطاً، يغطي الأرض العارية على امتداد الرؤية من القطار.

نزعت السيدة الجالسة قبالة مجتبي معطفها، وغطت بها جسده الذي تكوّر بفعل البرد، وبقيت بكنزتها الصوفيّة السميقة.

دخل القطار الأراضي السورية التي كانت (تركيا) قد استولت عليها إبّان الحرب العالميّة، وصعد رجال الدرك الأتراك لتدقيق جوازات سفر المسافرين، ثم دخل الأراضي السورية من جديد، وعادت التدفئة. فنزع مجتبي معطف السيّدة عن جسده، وأعادها إليها شاكراً، قبل أن تغادر في محطة (القامشلي) حاملة حقيبتها بيد، ومودعة باليد الأخرى.

كانت الشمس تضيء الكون، وتدفعه بأشعتها، عندما دخل القطار الأراضي العراقيّة في منطقة (ربيعة) وصعدت العناصر الأمنية إليه لتدقيق جوازات السفر.

وقبيل الظهر وصل محطة الموصل، فتأبط كل من الزميلين حقيبته نازلاً.

* * *

استقبلهما بشكل لائق، الدكتور عميد الكلية. وكان رجلاً وقوراً
مهيّباً، وأرسل معهما من ساعدهما في حمل الأمتعة، إلى غرفة خاصة ضمن
حرم الكلية عائدة للسكن الجامعي.

15.

تتوسط الموصل أم الربيعين (يعد خريفها ربيعاً لوفرة أمطاره واعتدال حرارته) على أرض سهلية شمال العراق، يقسمها نهر دجلة إلى أحياء عدّة تتواصل فيما بينها بواسطة الجسور المقامة على تفرعاته.

في وسطها يتربع الجامع الكبير بمئذنته الحدباء والذي بناه (نور الدين الزنكي) في القرن السادس للهجرة.

في طرفها الشمالي يقع جبل (النبي يونس) الذي تقام على قمته وسفوحه، احتفالات شعبية في ربيع كل عام.

وفي الجهة الغربية منها تقع مدينة (نينوى) الأثرية البابلية الشهيرة تاريخاً، والتي سكنها الإنسان القديم منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

يقال: إن الثور المجتّج في الحضارات دلالة على القوة والخصب، أما الثور المجتّج على بوابة نينوى، فيختلف عن أي ثور آخر.

وقلعة (النمرود) درة الحضارة الآشورية، والتي بنيت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ليست بعيدة عنها.

تعتمد الموصل بزراعتها على المحاصيل الحقلية، وإنتاج الفواكه والخضار، وتربية الأغنام والجواميس التي تشاهد بقطعان كبيرة - أثناء عبورها النهر - ، متراصّة على وجه الماء، كرفوف الحمام الأسود على بيدر بعد التذرية.

كان أهلها وخاصة الفلاحون منهم، يعبرون النهر في قصف مدوّرة، مسطحة القعر، منسوجة من نبات الأثل المصفور، يتكدس فيها البشر والبضائع، أو في زوارق خاصّة مصنوعة من جلود البهائم التي تخييط بشكل محكم، ثم تنفخ كالقوارب المطاطيّة، ويتعلق بها البشر جسداً إلى جسد. أهلها يعتبرونها توعماً لمدينة (حلب) السوريّة بيئياً واجتماعياً، لدرجة كانوا إبّان فترة الاستعمار الإنكليزي للعراق، يعتبرونها جزءاً من سوريا. عانى أهلها الكثير من الكرب والبؤس أثناء ثورة (الشوّاف) فيها، والتي انطلقت بتأييد من الرئيس (عبد الناصر) في حينه، ضد نظام حكم (عبد الكريم قاسم) الذي قاد الانقلاب على النظام الملكي في العراق. تغلب المسحة الصحراويّة على أهلها، شكلاً وطباعاً، وتسيطر عليهم المفاهيم العشائريّة والقبليّة.

تتموضع جامعة الموصل (المجموعة الثقافيّة) على الضفة الشماليّة للنهر، وتتوزع كلياتها في أكثر من مكان.

أول محاضرة حضرها (مجتبي) في السنة الأولى بالجامعة كانت لمادة الرياضيات، وباللغة الإنكليزيّة، وكان أستاذاً مصرياً جافاً كمداته، لم يفهم عليه كلمة واحدة.

التفت يمنة ويسرة، فرأى الطلاب يتابعون ويكتبون، وكانهم يستوعبون اللغة والموضوع.

ولما تكررت الواقعة معه ومع زميله (أحمد) في مادّة (الفيزياء) أيضاً رأياً أن مسألة المتابعة بالجامعة فوق الطاقة، بسبب عدم وجود أي أثر لهاتين المادتين في برامج الثانويّة الزراعيّة ولا ببرامج المدرسة الحراجية التي تخرّجا فيها.

الرجل الوقور المهاب طيّب خاطرهما، عند عرضهما عليه الأمر قائلاً:

لا تتسرعاً بالحكم والقرار، والسنة الدراسية لا تزال في بدايتها،
وسنفتح قريباً دورة لتعليم اللغة الإنكليزية لمن يرغب.

مجتبى صمّم على المتابعة والنجاح، إذ كان عليه أن يؤدي واجبه بشرف
وشفافية. كان ينقضّ عليه النوم باكراً، وحوله الطلبة لاهون، ويستيقظ
بعيد منتصف الليل، قبل الأرض والسماء، وقبل أن يمدّ الديك رقبتَه منادياً
على الفجر بالبزوغ. حيث لا زيارة ممن يبتغي شرب الشاي، ولا ضجّة من
مذياع، لأنه يعلم أن على الحصان أن يوثر عضلاته جيداً، إذا كان على
وشك القفز. ويعلم أنه يحتاج من أجل تحقيق حلمه، إلى إرادة قوية وطاقة
هائلة. لاحق أستاذ مادة الرياضيات في كل الكليات، حفظ معنى كل
كلمة إنكليزية، استخرجها من القاموس، تقرب من الأساتذة الألمان
والهنود، فعلموه وسرعان ما أصبح من الطلبة المتميزين، ومع هذا فقد رسب
في مادة الرياضيات على درجة واحدة 59٪، ولم يجد اعتراضه على النتيجة
شيئاً.

وكان نظام الجامعة لا يتيح للطالب الانتقال من سنة دراسية إلى أخرى،
إلا إذا نجح في كل المواد، وعليه أن يعيدها من جديد إذا رسب بمادة واحدة
منها.

* * *

عاش مجتبى أيام العطلة الصيفية التي أمضاها في قريته في حالة صراع
داخلي، ما بين إلغاء الإجازة الدراسية والعودة إلى الوظيفة، أو العودة إلى
الجامعة لإعادة السنة الدراسية الأولى، دون أن يعلم أو يستشير أحداً من
أقاربه أو أصدقائه.

لكن الصوت الإنساني البارد النابع من العقل، حسم الصراع في الأيام
الأولى من افتتاح الجامعة، وتغلبت نزعة الدراسة بجنودها الكثر الأشداء.

فجمع حوائجه فوراً وانطلق بساعة الحسم تلك، باتجاه الموصل، وذلك بعد أن تذكر معاناته للوصول إلى الجامعة، معللاً نفسه بقصر الزمن (سنة وبتمر).

فور نزوله من القطار في محطة الموصل، التقى بأحد زملائه، الذي بدا وكأنه بانتظاره، فعانقه مبشراً بالترفيح قائلاً:

لقد عقد (مجلس الجامعة) اجتماعاً، قرّر خلاله ترفيع كل طالب راسب بمادة واحدة، على أن يقدم امتحانها بالسنة اللاحقة.

وكعادته (مجتبي) في المواقف المشابهة، دمعت عيناه شكراً لله وقال: سيحسب والدي أن في هذا إشارة كغيرها من الإشارات.

16.

تقع كلية الغابات في منطقة (حمام العليل) جنوب الموصل، حيث تنام بيوتها على خدّ نهر دجلة، وتتميّز بمياهها المعدنية الساخنة المنبجسة من باطن الأرض، وتقام حولها مصحّات للأمراض الجلدية، ومن هنا جاءت تسميتها (حمام العليل).

على مقربة منها ويجوار ضفة النهر، يوجد تل ترابي منعزل، كبير علواً وامتداداً (تل السبت) يجلس منتصباً بارتياح على أرض منبسطة، يستدل من قاعدته البيكارية، وقمته الدائرية أنه تل صناعي.

غالباً ما كان مجتبي يصعد إلى قمته عندما يلقي الشفق سترته على رأسها وتستطيل الظلال شرقاً، بطريق التفاف، يمتع بصره بالرداء الأخضر الذي يكسوه في الربيع والخريف، مستمتعاً بمنظر قطعان الجواميس العابرة للنهر سباحة، ثم يصوغ من تلك الأحاسيس قصائد عاطفية، يرسلها مجبولة بالدمع عبر الأثير، بعد أن يترك نفسه تُفتن بروعة الأفق المائل أمامه: أيتها الأرض التي تمتدين إلى مكان وجود أحبتي.

حينما أنظر إليك هنا، فإني أراهم هناك.

لكنني أحتاج إلى مساعدتك، لأتحول إلى هواء يصل إليهم،

يداعب وجناتهم، لأن الهواء يجول في العالم،

وليس له مهذاً ولا لحداً.

.17.

تعتبر الجامعات بوجه عام خزانات للطاقة البشرية، لها دورها القيادي حاضراً ومستقبلاً، وتتميز بتعدد الرؤى السياسية والاقتصادية والاجتماعية. تبعاً لأحزابها التي قد تتلاقى وقد تتعارض في بعض تطلعاتها. وخاصة في العراق الذي تتعدد فيه الإثنيات العرقية والمذاهب الطائفية، والتي يسعى كل منها لإثبات وجوده وقوته وصلاحه، ليجذب إلى تنظيمه ما أمكن من الدعم والتأييد، إضافة لأحزاب أخرى عابرة للقوميات والطوائف، والتي كان قد انجذب مجتبي وزميله قبلاً إلى واحد منها، ذي قاعدة شعبية في أكثر من بلد.

ذات ليلة حالكة السواد، داهمت الأجهزة الأمنية مقار القيادات الحزبية، لذلك الحزب في (بغداد) معتقلة عدداً من أعضائه البارزين، واضعة يدها على الكثير من الوثائق السرية، والسجلات الخاصة بالتنظيم. المتضمنة أسماء الأعضاء، ومهامهم في جميع المحافظات، وذلك بمساعدة ودلالة تنظيم آخر كان قد انشق عن الحزب ذاته. وحمل اسمه ذاته، وأصبحت في حالة صراع ومنافسة فيما بينهما.

وعلى الفور عممت القيادة الحزبية، على كل الأجهزة والتنظيمات المرتبطة بها، طالبة إخفاء ما لديها من وثائق. والتواري عن الأنظار وإنكار أية صلة بالحزب، لأي عضو في حال اعتقاله والتحقيق معه.

في الليلة ذاتها التي كان قد تواري فيها القمر، وقبيل الخيوط الأولى للفجر، وبالفأس التي كان (مجتبى) يركش بها حديقة البيت الأرضي المنعزل، لزرعتها بالخضروات وبعض نباتات الزينة، قام بحفر حفرة عميقة في إحدى زوايا الحديقة في حين كان (أحمد) يفتش الحقائق والكتب والألبسة وفرش الأسرة. بحثاً عن أية قصاصة ورقية ذات صلة بالحزب، لأن الحرائق الكبيرة تتدلع من عود ثقاب صغير.

كان بين الفينة والأخرى، يتوقف عن الحفر ليسترخ، لينظر ما حوله، متطلعاً إلى الشرفات والنوافذ، ليطمئن إلى عدم مراقبته من أحد.

وضعا كل ما جمع من أوراق داخل الحفرة، وأهالا عليها التراب، فبدت بلون مغاير عن باقي مساحة الحديقة وبشكل يلفت نظر كل من يعنيه الأمر.

وحينذاك قام (مجتبى) - وهو الذي أتقن العمل بالفأس منذ صغره، على يد والده (رشيد) - بركش كامل مساحة الحديقة، فبدت كلها بلون واحد (حصل ذلك قبل بدء الامتحانات الجامعية بيومين).

اضطجع ليسترخ من التعب، لكن سريره كان مزروعاً بالأشواك الملحية. فصار نهياً للهواجس والأفكار والتساؤلات دون أن يتمكن من اصطلياد أية لحظة نوم، كان شاحب الوجه ممتقع الجبين وقد غادرت الدماء وجهه.

هل سيعقلوننا؟ هل سيسمحون لنا بتأدية الامتحان؟ هل سيبعدوننا عن العراق كأشخاص غير مرغوب بهم؟ أم سيودعوننا في المعتقلات إلى ما شاء الله؟

انتبه إلى ساعته وقد تجاوزت الثامنة، ودخلت شمس الصيف الحارة إلى غرفته، فخرج إلى الكلية متردّد الخطى، تاركاً رفيقه (أحمد) يغط في نوم عميق كعادته.

كانت شفته ورؤوس أصابعه تحسّ بوقع خاص كوخز الإبر، مؤرقة
ومنذرة باقتراب الشرارات الأولى من العاصفة المليئة بالوعيد.

حضر ساعة التمكين لمادّة الوراثة، حيث كان قد أعلن عنها أستاذ
المادة لمن يرغب بتركيز معلوماته.

دخل نادي الطلبة لتناول الشاي، تسقط ما يهّمه من أخبار، وجلس على
طاولة صغيرة قرب المدخل، ماسحاً بعينيه صالة النادي ومن فيها. ومستقرّاً
للجوه.

شاهد مختار الحي الذي يسكن فيه - على غير عاداته - بوجهه المعقد
وكرشه الكبير الذي يدفع الجلباب إلى الأمام كقبة.

راه جالساً مع بعض الطلبة الذين اشترأبت أعناقهم منذ أن دخل، فأدرك
أنه قد أرسل بمهمّة خاصة لمراقبته. (كان محظوراً على العناصر الأمنيّة
دخول حرم الجامعة).

وعند ارتشافه أول نهلة من كأس شاي كان قد تناوله عن سطح قاطع
المطعم. جاءه طالب سوري - كان يسكن قريباً من بيتها - قائلاً:

(أرسلني رفيقك أحمد كي تحضر إلى البيت فوراً، لوجود ضيوف لك
ينتظرونك هناك).

من ارتباك ذاك الطالب، من امتقاع وجهه، من حركة حنجرتيه
الصاعدة الهابطة، من جفاف شفثيه وعجزه عن ابتلاع ريقه، أدرك مجتبي
بأنه يكذب، وأنه يخفي وراء كذبه أمراً جلاً، فقال له:

أذهب إليهم وأبلغهم أنني آت، بعد مقابلة قصيرة لأستاذ مادة الوراثة في
مكتبه، فامتقع وجهه أكثر، وقال لقد طلبوا إليّ ألا أعود إلا برفقتك.
فأيقن بالخطر.

إن لبعض البشر قلباً كقلب الإسكندر الكبير، ولبعضهم قلباً كقلب
كلب صغير.

إن الإنسان موقف، وبعض المواقف تبقى محفورة في الذاكرة. وانقطع الشك باليقين، بمرور طالب عراقي بالقرب من الطاولة، واضعاً أمامه ورقة صغيرة مكورة دون أن ينظر إلى وجه (مجتبى) الذي فهم منها أنه قد تم اعتقال رفيقه أحمد في البيت.

الدم الفلّاحي الذي يجري في عروق مجتبى، كان إيجابياً ومثمراً، فلم يخف، ولم يرتبك، لأن الخوف يولد مسوخاً، بل ذهب لمقابلة (عميد الكلية) وتدارس الأمر معه، بصفته ولي أمره هناك، فبدا أنه على اطلاع به. كان العميد رجلاً شهماً وقوراً كئيباً يعشق مواقف الرجولة ويقدرها، فارتسم بين حاجبيه تغضنان للحكمة، ونظر إليه بعين من خبر الحياة وقال: لن أسمح بدخول أي عنصر أمن إلى داخل حرم الكلية، وأنت حرّ في أن تذهب وتسلم نفسك إلى رجال الأمن، أو أن تبقى داخل حرم الكلية وتؤدي امتحاناتك بأمان.

لم يشأ مجتبى أن يظهر أمامه بأنه أقل منه شهامة، كما لم يشأ أن يقدم الامتحان ورفيقه رهن الاعتقال فقال:

أنا لا أريد أن أسبب لك أي إزعاج، وأنا على استعداد أن أذهب إليهم ماشياً على قدمي، مهما تكن النتائج، لكنني أرجوك أن تبحث معهم - إن كان الأمر ممكناً - أمر السماح لنا بتأدية الامتحان بأية صورة يرونها.

وعلى الفور اتصل العميد، برأس الأجهزة الأمنية بالموصل، عارضاً عليه الأمر. ومتعهداً بتحمل أية مسؤولية عن أي تصرف مخالف يبيدانه، فاستجاب للطلب.

ذهب مجتبى إلى البيت حيث عناصر الأمن بانتظاره، فرأى على الشرفة (بومة) صغيرة دوّخها الضوء، فظلت صامته بهدوء تنتظر حلول الظلام، فترك للقدر عنوة مثلها أن يرسم له خطوط مستقبله.

-18-

بعد ثوان طويلة، تراكمت فيها كل النظرات على وجه مجتبي مثقلة جبينه، قال كبيرهم - وكان أحمد مكبلاً بالحديد - قفا إلى جانب بعضكما، ثم فكوا وثاق أحمد، وأوثقوا يديهما بقيد حديدي واحد، وطلبوا إليهما السير باتجاه المخفر.

وذلك بعد أن كانوا قد فتشوا البيت تفتيشاً دقيقاً، دون أن يتركوا فرشاة على سرير، ولا غطاء على فرشاة أو لحاف، مبعثرين الدفاتر والكتب والمحاضرات. رمق مجتبي بنظره إلى الحديقة، فرآها على حالها، وحمد الله إذ نجحت خطته. ولم يهتدوا إلى ما طمر فيها.

أخرجوهما من البيت إلى المخفر مكبلين، وصار كل من يلتقيهما من أهالي البلدة ينظر إليهما بعطف وإكبار.

وراحت أعين النساء تراقبهما من الشرفات والأسطحة والنوافذ، وقد ارتسم فيها الخوف والشفقة، وبين الحين والآخر كانا يكسران صمت الطريق بكلمات قليلة ليس لها معنى.

نظر مجتبي إلى مكتب رئيس المخفر، فلم يجد فيه سوى الطاولة الخشبية، والبنادق المعلقة إلى الحائط، وأسياخاً حديدية مختلفة الأحجام، وكرايبج جلد العجل التي تستخدم للجلد أثناء التحقيق.

طلب رئيس المخفر إلى السجّان أن يفك وثاقهما. ويدخلهما إلى غرفة النظارة، ويغلق عليهما الباب بالفتاح. فانفتح في قلب كل منهما باب للغمّ والهّم، فأثى لطائر اعتاد العيش في أعالي الجبال وقمم الأشجار أن يتأقلم مع العيش في قفص ضيقّ مظلم وسخ...

قال السجان: أخرجنا ما في جيوبكما، فأخرج مجتبي مبلغاً مالياً زهيداً وجواز سفر، وقلم حبراً ألمانياً بريشة ذهبية (تروين) كان قد لازمه من المدرسة الإعدادية، ودفتر مذكرات صغير، وقطرة عينية، وبضعة محارم ورقية.

وأخرج أحمد علاوة على ذلك، علبة سجائر، وعلبة كبريت، وعلبة علك من النوع المزيل لرائحة الدخان من الفم.

ثم أمرهما بخلع حذاءيهما والجوارب، وبوضع يدي كل منهما فوق رأسه، وقام بتفتيشهما تفتيشاً دقيقاً، وشعر مجتبي حينذاك بالأيدي التي تفتش جيوبه، كمنار تحرق جلده ولحمه.

غرفة النظارة بالمخفر، غرفة صغيرة مصممة، لا يدخلها الضوء ولا الهواء، إلا من كوّة صغيرة تحت السقف، مشبكة بالحديد التخين المبروم. كانت أرضها مغطاة بقشور الفاكهة وبقايا الطعام، وبأوساخ أخرى. تتبعث منها روائح كريهة (صنّة) تجبر المرء على إفراغ ما في معدته، لتضاف روائح إلى رائحة حمض البول المتراكمة كطبقات في جوّ الغرفة.

وعلى جدرانها تتراكم كتابات ورسومات متعددة الأشكال والألوان، بعضها رسم أو كتب بالقلم، وبعضها بالأصابع وقشور الفاكهة، وبعضها بأشياء أخرى.

نادى (مجتبي) على (أحمد) ساعدني أرجوك، أكاد أختنق، أريد هواء نظيفاً مباشراً على وجه السرعة.

اصعد على كتفي (قال أحمد) لتصبح قريباً من الكوة حيث يدخل الهواء، وهكذا فعل مجتبي مع أحمد.

فجأة وقف أحمد صائحاً بقوة وعصبية وهو يقرع الباب، وسرعان ما جاءه السجنان بعصبية أشد، وبيده كراباجاً مبروماً، يهزه بعنف وهو يتساءل ماذا تريدان؟

قال أحمد: نريد مكنسة لكنس هذه الأوساخ المتراكمة على أرض الغرفة، وخرطوم ماء لشطفها كي نتمكن من الجلوس والنوم. قال السجان: انتظر إلى غدٍ فبعد أن تنظف جورة مرحاض المخفر بنفسك وتنقل محتوياتها بالتتكة إلى الخارج على كتفتك. ترى في أرض الغرفة حديقة غناء.

كانت مئانة مجتبي قد امتلأت تماماً، ولم يعد يتمكن من السيطرة عليها، فتقدم من الباب رافعاً يده ليطرقة، ظاناً أنهم سيسمحون لهما هذه المرة بالخروج إلى بيت الخلاء، فتذكر ما قاله السجان منذ قليل وهو يهدد ويتوعد. فاتجه إلى أحمد ليستشيريه بالأمر، فأعلمه بأن حاله أكثر سوءاً. وحينذاك تحررت مئانة مجتبي وتدفق ما فيها إلى ساقيه والحذاء، عبر ثيابه، وبالحال انتقلت العدوى إلى مئانة أحمد وفعلت فعلها.

وعندما أحسّا بترطيب جسميهما وثيابهما، لم يستطيعا صبرا. فانقضّا على الباب قرعاً بالأيدي، ورفساً بالأرجل وليكن ما يكون. جاءهما (رئيس المخفر) والشرر يتطاير من عينيه قائلاً (الآن الآن صار للكرباج دور).

قال مجتبي نريد تنفيذ الاتفاق الذي أبرم بشأننا بين رئيسكم وعميد الكلية والذي على أساسه سلمتكم نفسي، مقابل السماح لنا بتأدية الامتحان الذي سيبدأ غداً.

وحينذاك خفّ توتر رئيس المخفر، وقال انتظرا ريثما نستطلع الأمر.
وبعد قليل أرسل من يفتح لهما الباب قائلاً:

تقرر نقلكما إلى غرفة نظيفة مضاءة ومهواة، تشجع على الدراسة. وقد
أرسل رئيس المخفر من يجلب لكما من البيت الكتب والثياب.
هذا التغيير المفاجئ بالتعامل. ترك انطباعاً حسناً في نفسيهما،
وبتسفيرهما إلى البلد بعد انتهاء الامتحان، وخاصة عندما ترك لهما حرية
التجول، في فسحة المخفر المحاطة بسور قليل الارتفاع، يمكن اجتيازه
بيسر، مع أن المخفر كان يحرس ليلاً من قبل شرطي وحيد يغط بالنوم على
كرسي كبير في مدخله الواسع، وقد أنهكه التثاؤب كذئب جائع،
وحينها كان القمر بديراً، ويغمر بنوره فسحة المخفر وكأن الشمس لم تغب.
ولهذا استبعدا خيار الفرار عند مناقشتها موضوعه. بعد عرضه عليهما
من قبل بعض رفاقهما خارجاً.

على وجوه الأساتذة والطلبة، قرأ مجتبي شعوراً متناقضاً حيالهما،
عندما جيء بهما مكبلين إلى قاعة الامتحان، بشاحنة صغيرة، على كيبينها
مدفع رشاش خلفه شرطيان. كان الشعور بالأسى بادياً على وجوه الغالبية،
ولاسيما على وجوه الزميلات اللواتي كنّ يبدين استلطافاً وإعجاباً، ولسان
حالهن يقول (السجن للرجال).

وكانت الشماتة بادية على وجوه البعض، وخاصة أولئك الذين ينتمون
إلى تنظيمات سياسة لا تتوافق تطلعاتها مع تطلعات حزبهما.
وآخرون وكان الأمر لا يعنيهم.

(جمعة) طالب سوري أخلاقي غير مسيّس، تقصّد (مجتبي) لقاءه أثناء
تسليمهما ورقتي الامتحان قرب باب القاعة.

جمعة أيها الصديق الوطن، نريدك أن تعلم سفارتنا بواقعة اعتقالنا، قال

مجتبي، أنا أعلم أن المهمة ثقيلة عليك، ولكن غداً لا يوجد امتحان،
وبإمكانك المذاكرة في القطار ذهاباً وإياباً.

تغضنّ جبين (جمعة) وأحسّ بثقل الطلب، وضيق الوقت، ومع هذا فقد
سافر وعاد قائلاً: لقد وعد السفير بما هو خير.

كانا يطيلان الجلوس في قاعة الامتحان، إلى آخر دقيقة من الوقت،
ليطيلاً بذلك زمن وجودهما خارج المخفر، ثم يقفان متلاصقين أثناء الخروج
ليطبق الشرطي القيد على يديهما معاً، حيث كان قد حررهما داخل قاعة
الامتحان.

في العراق كل شرطيّ يكنّى بأبي (اسماعيل) وآباء اسماعيل المخفر
بكمالهم - وحتى من كان منهم مجازاً - كانوا يتواجدون ظهر كل يوم في
المخفر، لتناول طعام الغداء، الذي كان يرد إليهما بسخاء، من أناس لا
تربطهما بهم معرفة شخصيّة.

-19-

خاب أملهما بالترحيل إلى بلدهما، بعد الامتحان، إذ اقتادوهما - عوضاً عن ذلك - مكبلين إلى السجن المركزي بالموصل، والذي يجعل المرء يحس باليأس والألم، مجرد أن يضع فيه أول قدم.

كانت كثافة نزلائه تجعل الداخل إليه يشعر أنه في معصرة. أدواتها صغر المساحة، والاكتظاظ ورائحة النوم الحبيسة.

فالأرجل تتداخل بالجلوس، والبطون تتلامس بالوقوف، وبالمجمل لم يكن يخص النزيل الواحد أكثر من متر مربع، ومع هذا كانت تتوازن المعادلة. لأن الكثيرين من النزلاء لم يبق منهم إلاّ الجلد والعظم.

* * *

على مدخل السجن، وقف سجان، بيده لائحة أسماء، قرأها بصوت مرتفع من بينهما اسمي مجتبي ورفيقه أحمد، وطلب إلى كل من قرئ اسمه أن يهيب نفسه للانتقال إلى (بغداد). وذلك بعد ثلاثة أيام من دخولهما ذلك السجن.

في الزاوية الشمالية من الباب الكبير للسجن المصفح كدبّابة، فتح بويب فردي ليخرج منه السجن بعد أن يعلن عن اسمه. ويجد نفسه داخل صندوق السيّارة المغلقة المعدة لنقل المساجين.

اكتظت السيّارة بالبشر، وأخذ كل من فيها يصيح بألم، بأنها لم تعد تستوعب أحداً.

تدخل السجن بكعب البندقية، فأجبر الجميع على التقهقر للخلف، ثم دفع بآخرين وأغلق الباب وقفله بقفل متين.

جلس الشرطيّان المرافقان إلى جانب السائق، وانطلقت مسرعة بعد أن تشابكت الأطراف، واتحدت البطون، وحتى الرؤوس لم يبق لديها مجال لتحويل وجهتها، ولا للنظر إلى داخل النفس، وأخذ كل منهم يستششق زفير من يقابله، وإثر محاولة البعض التوجه باتجاه النافذة الصغيرة الموجودة تحت سقف السيّارة، ابتدأت معركة بالسباب والشتائم فقط، لعدم إمكانية تحريك الأطراف، وهنا أدرك مجتبي فائدة الازدحام.

تزوّد الجالسون في كابين السيارة بالماء والطعام عند التوقف في إحدى الاستراحات، ولم يُعط أي من المكبوسين في صندوقها، شربة ماء.

ثم استأنفت سيرها، بعد أن أصبح جوّ الصندوق يعج بالنّنتن... وأصبح الهواء فيه ثقيلًا وكثيفًا.

وصلت السيّارة (معتقل الأمن العام) في بغداد، عند هبوط الليل، وسلّم الناقلان ما بعهدتهما من بضاعة وغادرا المكان فوراً.

دمدم السجّان في سرّه (وكأن المكان لم يمتلئ حتى الانفجار) ثم شك لائحة الأسماء في سفود خاص فوق بقية اللوائح.

أدخلوا إلى المعتقل، فأجبرت روائعهم من فيه على الابتعاد، وفتح لهم ممرّ إلى المغاسل الجماعية - التي لا تفتح إلا في هكذا مناسبة - ليغتسلوا ويغسلوا ثيابهم الداخلية. تهيئة لتوزيعهم على الزنازين الانفرادية.

* * *

ـ20ـ

معتقل الأمن العام في بغداد. كان قد صمّمه وأشرف على تنفيذها، ضابط أمن سوري، كان على رأس الأجهزة الأمنية في سوريا، إبّان وحدتها مع مصر، في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، والتجأ إلى مصر بعد الانفصال، ثم أوفده (عبد الناصر) إلى العراق لمساعدة رئيسها في تمكين حكمه.

المعتقل مبنيّ بطابق أرضي اسمنتي وحيد، محاط بأسلاك شائكة عالية كثيرة التشابك والتعقيد، ثم بأبنية طابقيّة عالية لجميع الأجهزة الأمنيّة. مبنيّ على هيئة صندوق مفتوح، أقيم في داخله صفّان من الزنازين الانفرادية، يفصل بين الصف والآخر منها ممر بعرض متر ونصف.

في داخل علب الكهرباء على جدران الممرّات ثبتت لواقط صوتية عالية الحساسية لتتقل كل ما يحكى داخل المعتقل إلى مكتب الضابط المناوب. (اكتشفها مهندس كهربائي نزيل).

كان الممرّان قد حشرا بأربعة أضعاف طاقتهما على الاستيعاب من البشر، من مختلف الانتماءات السياسيّة، والأعمال الإجراميّة، وعلى المرء أن يجد لنفسه مكاناً للوقوف، في جو خانق من الحرارة والغازات (فصل الصيف) وكانت قطعان الجرذان بين الحين والآخر تكتسح ذلك المعتقل المشين.

عند إدخال القطيع الذي جيء به من الموصل، تفرّس أحد النزلاء في وجوه الداخلين لغاية في نفسه، وكذلك عند خروجهم من المغاسل، فقرأ على وجهي اثنين متلازمين منهم، ما ميّزهما به عن الآخرين. فدنا منهما متسائلاً:

هل أنتما الطالبان السوريان المعتقلان من جامعة الموصل؟

ولما تلقى الإجابة بالإيجاب، كشف عن نفسه قائلاً: إنه من المسؤولين عن تنظيم الحزب في بغداد، اسمه (فتحي) وإنه على علم واطلاع بظروف اعتقالهما، وقدّم لهما ما أمكن من مساعدات (ملابس داخلية، طعام، سجائر، صابون....) وعرفهما بعدد من المعتقلين معه، فأصبحا في حالة انثناء عميقة، خففت عنهما قهر الاعتقال.

وداخل المعتقل حافظ مجتبي في نفسه، على وجوه من أحبّ، بالرغم من كل ما مرّ به من هموم وألم.

مساء اليوم التالي، جاء سجان إلى المعتقل، بيده لائحة أسماء، قرأ منها أسماء المعتقلين الذين جيء بهم ليلة البارحة من سجن الموصل، موجهاً كلا منهم إلى رقم زنزانه خاصّة. فخصص (مجتبي) بالزنزانه رقم /12/ و(أحمد) بالزنزانه رقم /20/.

بهت الاثنان إذ كانا إلى جانب بعضهما، كل منهم يواسي الآخر ويعلله. ودفع السجان كل منهما إلى زنزانه دفعاً. ولم يسمح لأي منهما أن يقول كلمة للآخر، فخُيل لمجتبي أن روحه صارت قاتمة شديدة السواد، إذ أن البقاء مع الجماعة يبدد الفزع والقلق، ولا شيء يثير الخوف مثل الانفراد.

دخل مجتبي زنزانه، وقفلت عليه بالفتاح، فأخذ ذهنه يحضر ويحضر وسط جمرات متّقدة في قلبه، وانتابته قشعريرة من شعور أليم فقال في نفسه، هنا ضمن هذه الزنازين، ضمن هذه القبور الاسمنتية، الملقوفة بريح الصمت الباردة. تتمثل حالات الجسد بعد الموت. وغابت رؤى الحياة عن

ناظريه، وبقيت أطياؤها في مخيلته وشغاف قلبه، وباتت خريطة طريقه معممةً بغبار الأيام، شمسها تشرق وتغيب على قلق وخواء.

كانت جدران الزنزانة مكسوة بنقوش ورسوم وتواريخ، وشكاوى وأدعية، ما لبث أن قال عنها: إنها ظنون ذوات منهكة.

افتتح أرض الزنزانة، فقفزت ذكرياته القديمة أمام عينيه كحمامات بيضاء، سخيّة الهديل، وأحس برأسه يبحر إلى طفولته، وبنور الإيمان الذي كان يضيء باطنه بروح السكينة، يؤنس وحدته، ثم أطلت عليه من مدينة رؤياه الجميلة، إشراقات لا تدرك باللمس، وانفتح باب في أعماقه. فتعاقبت إليه ذكرياته الواحدة تلو الأخرى. والذاكرة نهر، ونهرٌ يجري إلى الوراء على الدوام، كما أنها خداعة شديدة المكر.

أو مضت في ناظريه واحتشدت بذاكرته كل أعماله وعلاقاته، سافر في رحلاته كلها. فشعر بالاطمئنان إلى جدران الزنزانة التي أصبحت حانية عليه، حيث فصلته عمّا حوله، وامتدت به إلى اللانهاية.

أزاحت أستار ذاكرته المكومة على سنوات عمره واحتشدت في أنفه رائحة خبز تتور أمه آخر النهار، وعاودته الرؤية إلى كل ما سبق أن رأى وفعل، فأحسّ بنور نقله في لحظة إشراق إلى: والده (رشيد) وإشارات الخير التي اعترضت طريقه، أثناء تمرده على الظلم الأسود، ونزوحه وزوجته عن القرية - التي يتراكم فيها الظلم طبقات - تحت جناح الظلام. بعد أن نال ما نال من كرامة زعيمها وسمعته وجسده (كسريده بالفخ).

الحكايات التي كانت تحكيها له جدّته شتاء حول موقد الحطب.

الحجر الصغير الذي خبأه تحت شجيرة الريحان، ليتفحصه يومياً، ليعرف ما إذا كانت الحجارة تكبر ككل الكائنات.

الجقل الذي انقض على الجدايا التي كان يرهاها في صغره، وساق أمامه جدياً فتبعهما راكضاً، وحينما التقط الجقل الجدي، أربعه صوته، وحجر رماه به أصاب رأسه، فتركه وهرب.

الشيخ (اسماعيل) وهو يعلم الأولاد القراءة بالقرآن الكريم، تحت شجرة السنديان، كروم التين والزيتون والعنب، وهو يسرح ويمرح مع رفاقه على ضفاف السواقي. يقتلعون بعض جذور نبات الحمص من الحقول، ويشوونها على نبات شوكي يابس (البلان) في ظل الريف الصخري قرب (عين الحور) ثم يتناولونها بشهوانية.

تجربته الجنسية الأولى منفرداً بنفسه.

(عبلى) التي كان يلتقي بها على وجه القمر، وهو مستلق إلى جانب والده الغاي في من التعب أعلى مسطح التين.

أمه الحنون التي كانت تخبئ له ثمن ما تبيعه من بيض إلى البائع المتجول على ظهر حمار، كمصروف جيب، لأنها كانت تعرف أن الابن هو نبع الخلود.

بوقا والسنوات الهنيئة التي قضاها فيها كطالب حيث استقى المعارف والعلوم، ومدرس يعطى طلابه ما لديه بحب وحنان.

غابة (الفرنلق) وسدّ المستشار فيها.

ما كان يبذله من جهد لإنقاذ ولو شجرة واحدة، أثناء مشاركته بإخماد حرائق الغابات.

جبال الألب، وغاباتها، وبحيراتها، والحيوانات البرية شبه الأليفة فيها.

مضيق البوسفور، وعباراته الواصلة بين القارتين الآسيوية والأوروبية

(أليفريدا سرهوير) وعشقه العذري في ألمانيا.

شاطئ البسيط، جبل قاسيون، نهر بردى، وصوت (فيروز) وهو يصح

خريفاً بليالي معرض دمشق الدولي، على ضفاف النهر.

زوجته وطفليه الراقدين على سرير واحد، وكل منهم يحضن الآخر،

حالمًا بعودة عزيز غائب.

جامعة الموصل، وطلبتها وأساتذتها، ولاسيما الرجل الوقور المهاب (عميد الكلية)، إلى ما اعترضه في مسيرة حياته من إشارات لم يكن يتوقعها. أخذت بيده، ودفعته إلى التفاؤل والأمل.

عاد إليه كل هذا وغيره، ماثلاً: بالزمان والمكان والشخص، كفيض من الإشراق، انبعث من أعماقه، دون أن يجزم ما إذا كانت تلك الرؤية واقعاً فعلياً، أم أنها قد تمت بقدرة العقل التي لا تحد.

كان في الجحيم يحيا جنته الشخصية.

ثم تذكر صلاة الراهب المصري (هييا) مؤلف رواية (اعزازيل) التي كتبها باللغة السريانية عام /431/ ميلادية، على ثلاثين رقماً جليداً، وحفظها في صندوق خشبي محكم الإغلاق، إلى أن اكتشفت في الخرائب الأثرية، الواقعة إلى الشمال الشرقي من مدينة (حلب).

واستغرق الكاتب (يوسف زيدان) في ترجمتها إلى اللغة العربية سبع سنوات. وتطلب ذلك /368/ صفحة ورقية من القطع المتوسط، مشيراً إلى أن لغة الأصل تعدّ آية من آيات البلاغة والإيمان:

(استقبلت الريح بصدري العاري، وفتحت ذراعي بطولهما، ورحت أتلو صلاة لم أكن قد قرأتها من قبل في كتاب، ولا سمعتها في قدّاس).

«باسمك أيها الرب المتعالي عن الاسم، المقدّس عن الرسم والقيّد والوسم، أخلّي ذاتي لذاتك، كي يشرق بهاؤك الأزلي على مرآتك، وتتجلى بكل نورك وبهاك ورونقك.

باسمك أخلّي ذاتي لذاتك، لأولد ثانية من رحم قدرتك مؤيداً برحمتك».

حينما فرغ مجتبي من هذه الصلاة، التي أعادها عشرات المرّات وهو مغمض العينين، ومن متابعة ذكرياته، ومشاهدة لوحاته نام.

نام نوماً مريحاً مطمئناً، بعون أعلى ذروة الأمل، ولم يستقيظ إلا على صوت فتح باب الزنزانة، وعلى صوت السجّان يقول:

تقرر إخراجك من الزنزانة لتكون مع الآخرين.
ولم يكد يخرج منها، حتى رأى رفيقه (أحمد) مقبلاً نحوه، بعد أن
أخرج هو الآخر.
لكنه كان منهاراً شاحب الوجه، جاحظ العينين، بشارب متهدل على
الشفيتين، وقد حاول النوم استعداداً لاستقبال فجر مؤلم، وهو يقول:
في الوقت الذي كانت فيه غريبان القلق، تحمل في مناقيرها الخوف
والأرق، وفي الوقت الذي كانت فيه الأفاعي تطوّق عنقي، والعقارب
الكبيرة تقوّس مهاميزها للدغي، استيقظت من منامي على لدغ واحدة
منها، وأنا بين الحياة والموت، لقد سيطر عليّ شيطان الكآبة والعدم
المطلق، وحسبت أن الأيام ستنسخ نفسها في زنزانتي حتى النهاية.

.21.

ضجة ليلية وقرقعة سلاح أمام باب المعتقل، ولفيف من كبار الضباط يدخلون متوجهين مباشرة، إلى زنزانة معتقل إيراني محكوم بالإعدام (فاطر).

انتزع أحد الضباط جريدة قديمة مصفرة، ملصقة على جدار الزنزانة المواجه للخارج. كاشفاً عن ثغرة بثخانة رجل، دون أن يكون قد اكتشفها أي من المفتشين الذين كانوا يمرون يومياً لتفتيش الزنازين. أخرجوه معهم إلى التحقيق، ليعيدوه جرجرة، بعد مضي وقت كاف لإماتة جمل.

أعيد شحطاً، وألقي به في الممشى بين زنازين كتلة الوسط، وهو في غيبوبة كاملة ليجعلوا منه عبرة للموقوفين الآخرين الذين كانوا مستيقظين وناظرين.

كان الدم ينبجس من فمه وأنفه ولسانه الذي عضه وقت التعذيب الذي جعله يحس بدنو أجله، فلم يعد يشعر بالأحذية التي تسحقه، ولا بالقبضات التي تلكمه، لأن التحقيق جعل جسده ثقيلًا وفاقدًا للحس مثل حجر. بل أحسّ بانسدال الظلام أمام عينيه، ولم يستفق إلا بعد مرور زمن، ليشاهد نفسه في المعتقل من جديد، وحوله ثلاثة من المعتقلين يضمدون جراحه.

فوجئ مجتبي، بحركة أطرافه أثناء تضميد جراحه، فقال في نفسه:

ياللله ما أجبر الإنسان وأقدره على التحمل، إن قدرته تفوق قدرة بغل.

فاطر ذاته كان يخطط للهرب منذ زمن، حيث قام بإحداث تلك الفتحة - وفق قوله - بواسطة عظم استخرجه من الطعام، وأخذ يحفر به الجدار الخارجي للزنزانة، والناس نيام، ثم يضع نواتج الحفر في جيبه ويخرج بها إلى بيت الخلاء، بعد أن يعيد الجريدة إلى ما كانت عليه بدقة.

وعند إنجاز الثغرة وتوسيعها بشكل كاف لمرور رجل زحفاً، رأى أن عملية الخروج من الأسلاك الشائكة إلى الخارج، تتطلب تعاون رجلين اثنين، فعرض الأمر على سجين آخر كان يثق به، ليهربا معاً، ويبدو أن تلك الثقة لم تكن في محلها...

* * *

سأل أحمد مرّة، هل تعلم لماذا اعتقلنا يا مجتبي، وإلى متى سنبقى معتقلين، وهل فعلنا شيئاً يوجب هذا الاعتقال؟! فأجاب:

لقد اعتقلنا احتياطاً يا رفيق، وعلى النوايا، وربما لفعل فعله غيرنا من أعضاء الحزب، فعوقب عليه كلُّ أفراد التنظيم، واقتدنا إلى هنا روتينياً بسبب ذلك.

في هذا البلد يا صديقي بل في أغلب بلدان العالم، لا قيمة للفرد في المجتمع، فهو يعاقب على جرم لم يرتكبه، وربما لم يرتكبه تنظيمه أيضاً، كما لا قيمة للمجموعات والأحزاب إذا غضبت عليها السلطة الحاكمة، فهي تعتقل بمجرد وشاية أو شك، وعلى المعتقلين الاعتراف بما ينسب إليهم من تهم، إنهم يا أحمد لن يواجهونا بتهمتنا (لأننا بلا تهمة) أصلاً.

أما سمعت بماذا برر صاحب الثور المربوط ضربه له بغلظة، دون أن يكون قد فعل شيئاً يستوجب عليه ذلك، في حين أنه لم يتمكن من الثور الآخر الذي فلت وفعل إذ قال:

(لن يكون هيناً إذا ما فلت)

إن ماهية الإنسان يا (أحمد) جهد دائم، كي يظل إنساناً، كي لا يموت وهو حيّ.

نحن يا أحمد لن نندم على ما فعلناه، لن نندم على ما نحن فيه، لأن الحرية نهر كبير يتجمع ماؤه مما يغديه من روافد.

قال (مجتبى) الذي كان يستمتع بممازحة الخضر، إلى الرفيق (فتحي) مرة: يبدو أن السفارة لم تهتم بأمرنا، بالرغم من إعلامها بالأمر أولاً بأول، لقد مضى على اعتقالنا أكثر من شهرين دونما جديد قال فتحي:

جهّز رسالة هذا المساء، بحيث لا تلفت نظر أحد، وأطوها بشكل جيّد، وعندما أعطيك إشارة غداً، ضعها تحت بنطال بيجامتك من الخلف، وأسبل عليها القميص، وأسند ظهرك إلى الباب وانتظر.

عندما جاء دور الشرطي الذي يعرفه فتحي أشار إلى مجتبى أن انطلق، فقام متثاقلاً، وأسند ظهره إلى الباب. وهو يتكلم مع أحد المعتقلين.

فأحس بعد قليل بأنامل تندس في الخفاء قرب مؤخرته. فاستراح لنجاح الخطة، ومشى إلى الأمام عدّة خطوات، وعاد إلى مكانه مسروراً.

أيام رتيبة مرّت، لا مقابلة، لا سؤال، لا تحقيق، فأحسّ مجتبى بأن السفارة لن تفيدهما بشيء، وقال بنفسه:

إذا استمرت الأمور على هذا الحال، فسندسى هنا إلى ما شاء الله. خاصة بعدما سمعه عن المعتقل من عبارات ذمّ يرددها المعتقلون، مثل هذا المعتقل سيء السمعة، ما دخله أحد وخرج سالماً.

وبعد أن عرف أن زمن توقيف بعض الموجودين فيه دون تحقيق، يعود إلى أكثر من عشر سنوات.

كان مجتبي يؤمن بالتَّصح الذي تقدمه له ساعات الظلمة، ولهذا انتصح من أسطورته الشخصية، حينما نهرتة في نومه (حاول أن تقابل أحداً) واستفاق على وقع تلك الكلمات.

وحينما كان يريد الوصول إلى شيء يصبح أمكر من ثعلب، إذ بدا ذات يوم، لكل من رآه، بأن كل ما حوله لا يعنيه، وأنه يخطط لأمر ما بقيادة عقل راجح.

وفعلًا راوده في حينها إلهام كالنبوة، إلهام أفعال في النفوس من الخمرة المعتقة.

وكان يدرك بأن اليد الخفية، التي خلقت الكائنات، تكتب له عند الحاجة إشارات ذات معنى، وإن عليه اتِّباع تلك الإشارات.

فكر بالقيام بعمل يوصله إلى أحد المسؤولين عن المعتقل، ليبحث معه أمر الاعتقال قبل الدخول في زاوية النسيان، فالعقل حينما يضرب سيفه في عقد التأمل يحلها.

فكّر، وقرّر، ودون أن يعلم أحداً، ولا حتى الرفيق (فتحي) أو رفيقه (أحمد). ووصل بأفكاره إلى ما وراء الأفق، وتسلَّح حتى أسنانه للدفاع عن حرّيته.

تقدّم نحو الباب هامساً في أذن السجّان الذي يقف خارجه، . (عليك أن تعلم قائدك، بأن لدي معلومات أمنية هامّة، حول ما يجري هنا في المعتقل أريد إيصالها)، وأنا المعتقل السوري مجتبي.

كان متأكداً من الاستجابة لطلبه. لأن طلباً كهذا لا يجروء أحد على تجاهله، أو رفضه، فتقهقر القلق الذي كان بداخله.

حشد قواه كلها لأجل المقابلة وراحت تلافيف دماغه تركب جملاً
وعبارات ذات وقع، فالكلمة في كثير من الأحيان أشد تأثيراً من
الرصاصة، قرر أن يظهر أقصى ما لديه من شجاعة ورباطة جأش، لأنه يعلم
أن على المرء أن يكون شجاعاً في الأوقات الصعبة، وخلال التحديات، مع
أن الظلم والغضب كانا يضجّان بقوة في رأسه.

أحياناً كان ينزوي في إحدى زوايا المعتقل، ويغمض عينيه متظاهراً
بالنوم. لكنه كان يفكر فيما يتوجّب عليه قوله وفعله، ويراجعه في نفسه،
قبل المقابلة المنتظرة، التي يعول عليها كبؤرة ضوء وحيدة في نهاية النفق.
ذلك لأنه يعلم أن أجمل الألحان قد تتحول أمراً فظيماً إذا كانت الأوتار غير
مدوّنة.

وأحياناً كان يحلم أحلاماً غريبة:

لو أن العراق كان في موقع جغرافي آخر، لو أن شعبه كان من طبيعة
أخرى أقل حدّة، لو أن شمسّه كانت أقل سطوعاً، لو كانت أرض وسطه
وجنوبه أقل تملّحاً، لو كان فيضان أنهاره في غير فصل، لو.. لو.. لو..
لكانت الحياة فيه أيسر، والدراسة أسهل. ثم يخيم عليه ضيق مأزوم، وحالة
نفسية قلقة، كبقية المعتقلين.

كان مجتبي قد هياً نفسه للمقابلة، وتسلّح بما يجب قوله، كما يسلّح
الجامعي نفسه للدفاع عن أطروحته - فيظل صامتاً حتى يسأل، للمناقشة لا
لتقدير الدرجة - حينما جاء من يبلغه بأنه مطلوب لمقابلة ضابط قائد في
المعتقل.

وذلك بعد مرور أربعة أيام، على الرسالة الشفهية السابقة الذكر،
فأحسّ بمزيج من الغبطة والغيظ معاً، مع تفوّق للغبطة.

مشى مستبشراً، يملأ عينيه الإصرار والعزيمة، مرتدياً بنطال منامته،
يعلوه قميص داخلي بنصف كم، بذقن مرّ على حلاقتها أكثر من
أسبوعين، وفي قدميه شحاط بلاستيكي أسود.

توجّس رفاقه شراً، وقلقوا بشأنه، والتقوا حول رفيقه أحمد متسائلين حول سبب ذلك الطلب، وحول ماضي مجتبي وأحواله الشخصية.

في حين ظل هو طبيعياً وهادئاً، لأنه الوحيد الذي يعرف خلفيّة ذلك. لا بل تسربل قلبه بالشجاعة، التي كانت قد دفعته للمجازفة والاقترام، بإرساله تلك الرسالة. فالغريق لا يخجل من طلب النجدة، كما أنه لا يخشى البلبل.

مشى إلى جانب السجّان حرّ اليدين، فقادته إلى مكتب الضابط. وأدخله إليه بعد الأذن.

رأى نفسه في مكتب كبير، في نهايته المواجهة للباب طاولة كبيرة. جلس خلفها على كرسيّ دوّار، رجل أسمر، يرتدي زياً مدنيّاً. مربع الرأس، بشارب أسود مقصوص بعناية، يفيض عليه رجولة. وجهه طفح يخلو من التجاعيد، ما يبرز من جسمه فوق الطالة، يوحي بأنه طويل القامة، في سيماء شيئاً ساطعاً يلفت النظر، فاعتصم مجتبي بالسلوى وطمأنينة الفؤاد.

على يمينه ويساره بضع من أجهزة الهواتف السلكية واللاسلكية، وعلى الحائط فوق رأسه، صورة لرئيس العراق بإطار مذهب.

وعلى منتصف الطاولة برزت مزهريّة جميلة مليئة بأزرار الورد الأحمر. وحينذاك صار كل ما يحيط بمجتبي رمزاً، يذكره ليس في خياله فقط. بل في لحمه أيضاً.

يذكره بوالديه وولديه وأهله. والبلد.

أخذ يجمع قواه تهيؤاً لما سيقول ويتصرّف، مصمماً على الجرأة بالكلام، لأنه لن يحصل له أسوأ مما هو فيه.

دعاه الضابط للاقترب فاقترب، وعندما دنا منه، وقف على قدميه، مادّاً يده للمصافحة، ودعاه للجلوس على يمين المكتب فجلس، وحينذاك فقد كل حسّ بالمسافة، والخطر.

طلب له كأس شاي، وسأله عن أحواله الشخصية والصحية، فأجاب باقتضاب (الحمد لله).

ثم استدار بكرسيه نحوه بشكل مباشر، وبسمات باردة وجافة قال:
(وهسّع ماذا تريد أن تتطينا من علوم حول المعتقل) (مط الكلمة كثيراً)

ظل مجتبي صامتاً للحظة، يحسب كلماته، لئلا تهرب منه كلمة فتورّطه، ثم قال:

ليس لديّ ما أفيدكم به كما تظنون، ولا ما يستحق البحث أو الإشارة.
فتعكّر مزاج الضابط، عكّر بركة ماء في قعرها طين، خوّض فيه إنسان، وبغضب سأل لماذا طلبت المقابلة إذاً!

توقف مجتبي قليلاً، وأخذ نفساً يكفي لنجاة غريق، وأجاب بصوت ونبرة:

طلبت المقابلة لأسمع مباشرة من ذوي الشأن، عن حقيقة سبب اعتقالنا نحن الطالبين السوريين، اللذين كانا يحسبان نفسيهما، أنهما قد جاءا بلدهما الثاني، ليزدادا ثقة بالنفس والمواطنة، إلى جانب المعارف والعلوم، فإذا بكم، وقد أعطيتمونا دروساً مركّزة معمّقة بالذل والمهانة، في حين أننا نسعى للحصول على الشهادة كضمانة للعيش بحرية وكرامة.

جنّا لنشرب من ينابيع فكركم، من ثقافة بلاد ما بين النهرين، فأغرقتمونا في دنس المعتقلات، وأوحال الأهوار، نتلفت حولنا فلا نرى إلا الظلام الموحش.

إن في اعتقالنا، علامة شر مستطير، ونذير خطير، فهل يعود السبب في ذلك إلى ما صارت عليه مجتمعاتنا من استهتار بالبشر، واستخفاف بالحقوق.
أم لأن العقل والخيال قد نضب من مجتمعنا نضوباً مبكراً فشاخ قبل الأوان.

أم أن قلة اكتراثنا بالإنسان، تعزى لاهتزاز مبادئنا الأخلاقية أصلاً،
أم هو سقوط اجتماعي عام شامل، بلاء يشترك فيه الجميع؟!
إننا نغدو سريعاً نحو المجهول، لأن عنصر الشر يطغى ويسود على عنصر
الخير في غالبيتنا منذ المزجة الأولى.

تتطاول أيدينا على حرمان الآخرين وممتلكاتهم، نفرق في الملاهي،
نجد لذة في جرّ الآخرين من لحاهم إلى المعتقلات، ومع ذلك نعرف كيف
نظهر طبيين أمام بعضنا في المناسبات.

كان مجتبي يوجه خطابه بصيغة الجمع، كي يشعر الضابط بأنهما
عن بعضهما ليسا غرباء، وأن ما يقوله نقد ذاتي، وأن الكل في ذلك الفعل
سواء.

رمقه الضابط بنظرة غامضة، ولاحت على وجهه، ابتسامة لا تكاد ترى
دون أن يتكلم، فتهده مجتبي عميقاً واستطرد:

فتشتم بيتنا في (حمام العليل) تفتيشاً دقيقاً بفجور، دون أن تعثروا على
ما يشير إلى تحزّينا أو تسيّسنا، أو ما ينقص من كرامتنا.

أوقفتمونا في مخفر حمام العليل، وسقتمونا إلى قاعة الامتحان بالجامعة
مكبلين. وفي سجن الموصل وجد القمل في أجسامنا مرتعاً خصباً جديداً له.

ثم جئتم بنا إلى هنا في ظروف نقل لا إنسانية، ولا قبل للإنسان على
احتمالها. جئتم بنا إلى هذا المعتقل، الذي استتقع فيه الزمان، وأسن التاريخ.

ومن يدري إذا ما كنا سنساق غداً أو بعد غد إلى معتقل (نقرة سلمان)*
حيث لا شيء إلا الأبدية والريح والصحراء بهمهمات المكبوتة الغامضة.
والتي تشكل حوله سوراً، يستحيل اختراقه، في الوقت الذي تشكل بنفسها

* نقر سلمان معتقل في عمق الصحراء العراقية. كان يقال عنه: أن الداخل إليه مفقود،
والخارج منه مفقود أيضاً.

مدى حراً، لا حدود له، تملؤه الزوابع الرملية التي تتسلل بين السيقان، وتلتف حولها كالأفاعي، أو الكثبان الأسطورية القفراء.

تنهّد مجتبي، وحدّق في وجه الضابط بعمق، محاولاً استشفاف أثر ما يقوله عليه واستطرد:

لكي يزجّ الإنسان في السجن، لكي يعامل معاملة لا إنسانية، ينبغي أن يكون قد ارتكب جرماً، فما هو جرمننا يا ترى؟!؟

هل تحسّون أو تشعرون بهؤلاء الناس الذين تحشدونهم في الأقبية والزنازين؟! أم أنكم أصبحتم كآلات صماء لا تقيمون وزناً للبشر.

وعلى كل الأحوال فإن لكل شيء نهاية... مهما كانت ماهية ذلك الشيء..

فوجئ مجتبي بنفسه، ولم يعرف من أين ولا كيف جرت على لسانه تلك العبارات، ولا في أي زاوية من زوايا دماغه كانت تتلطّى.

ثم تذكر الإشارات التي كانت تتبّعه، وتتبع أباه قبله في كل مأزق.

وتأكد له ما كان يقوله والده باستمرار (من ضفاف العناء والعذاب تتكوّن القوّة، وينبعث الأمل، واللّه أعلى ذرى الأمل).

وتتمرّ حين لاقى من الضابط اهتماماً وإصغاءً وتأملاً بإعجاب وتابع:

لم نقتل، لم نسرق، لم نخدع أحداً قط، ولم نرتكب ما يعاقب عليه القانون ولا ما تحرّمه الشرائع.

لم أحلم طوال عمري إلا بتحقيق العدالة بين الناس. ولم أطمح إلى شيء على هذه الأرض إلا ببيت آوي إليه مع زوجتي وأولادي، وأن يكون لديّ ما أطمعهم به.

أمن أجل هذا الطموح يسجن الإنسان ويعاقب، وتغرس في قلبه أحزان الاعتقال كنصال حادة لا ترحم.

أنا لا أدري أين صارت فرشتي، أين صار لحايفي، ولا أين ثيابي، أين صارت كتبي، ولا أين دفتر مذكراتي الذي شلّعت صحائفه من قبل عناصركم، لأنهم لم يعثروا فيه على ممسك لاعتقالي.

أنتم لا تقيمون وزناً، لوقع اعتقالي هذا على والديّ العجوزين، على زوجتي، وأطفالي الزغب، حيث يُرسم اليتيم على وجوه الجميع.

وحدي أنا من يقدرّ بؤسهم، إن صوت أمي يسيل في داخلي، وصور أهلي إليّ شاخصة.

متى ستطلقون سراحنا؟ أم أنكم ستتركونا لنصير كالرجال الذين أصبحت وجوههم في زنازينكم تشبه وجوه النساء، متلوثة بالقذارة، متّحدة بالهوام. ولا يمكن غسلها، وأصبحوا حمقى بعد أن كانت عقولهم راجحة.

إن كنتم تتهموننا بمعارضة نظام حكمكم، فهل لديكم ما يثبت ذلك خاصة بعد أن فتشتم بيتنا تفتيشاً دقيقاً لم تفلت منه بيضة لحشرة قمل.

وهنا امتدت يد الضابط إلى درج مكتبه، ودفع له بصورة قائلاً:

أليست هذه صورتك، وأنت تقود مظاهرة معارضة في مدينة الموصل؟!؟

بعد أن تمعّن مجتبي بالصورة أجاب:

أنا لم أكن أقودُ المظاهرة، كما لم أكن مشاركاً فيها أصلاً، إنما شاءت الظروف أن أعبّر الشارع الذي كانت تسير فيه المظاهرة، لحظة التقاط الصورة، وكنت بها مسروراً - وفق ما تظهره - .

وعلى فرض أنني كنت أقودها فعلاً، فهل لديكم تسجيلٌ صوتيٌّ لما كنت أهتف به، لتتبيّن ما إذا كان يعاقب عليه القانون، أو أنه يتعارض مع العرف العام؟!؟

وعلى فرض أن هذا بين أيديكم، فهل لديكم ما يثبت أن زميلي (أحمد) الذي كان يخضع لعملية جراحية في المستشفى حينذاك كان بالمظاهرة؟!؟

أم أنكم تعمّمون سلوك الفرد على المجموعة والجنس.

صمت الضابط قليلاً، ثم ضغط زرّ آلة تسجيل عن يمينه، فانطلق صوت من شريط، بنبرات تشبه نبرات صوت مجتبي إلى حد بعيد وقال:

أليس هذا صوتك وأنت تحاضر بالطلبة المنتمين إلى تنظيمكم السري بالجامعة، حول اليمين واليسار بالإسلام، وتسقط ذلك على اليمين واليسار بالحزب؟ ثم تنتهي إلى مسألة فساد نظام الحكم في العراق، وسيطرة الأقليات العرقية عليه، وتغلغل الجاسوسية الصهيونية في مفاصله الحساسة - وفق ما تدعي - ؟

أطرق مجتبي ملياً، قبل أن يرفع رأسه، ويرمي الضابط بنظرة متفحّصة عميقة، عكست قوّة روحه، وبصوت خفيض سأل:

هل أنت متأكد من أن هذا التسجيل لصوتي فعلاً، حتى وإن كان يوجد تشابه بين نبرتي الصوتين؟!

أنا شخصياً لا أعترف بذلك، وأنفي الواقعة جملة وتفصيلاً.

ويبدو أن من تعتمدونهم كمخبرين لكم بالجامعة، يخدعونكم، ليشغلونكم ويبعدونكم عن الذين يسعون إلى تشويه نظام حكمكم لتحقيق ما يتطلعون إليه.

إن بيتنا لم يكن مقراً لقيادة شعبة حزبيّة، كما أنني لم أشارك بجولات فلاحية حزبيّة، على قرى مناطق (الموصل - حمام العليل - الشرقاط) كما قلت لي منذ قليل.

وإن قولك هذا يرفع من مكانتي وشأني إلى مستوى قياديّ بالسياسة، في حين أنني لا أهتم إلا بتحصيلي العلمي، والنجاح بالمواد الدراسية التي يتعبنى استيعابها أصلاً.

إن كل ما أحلم به وأتطلّع إليه، هو الحصول على شهادة الهندسة الحراجيّة، والعودة بها إلى بلدي، إلى والديّ، إلى زوجتي وأطفالي.

أمن أجل هذا نعامل معاملة لا ترقى إلى مستوى معاملة الدواب، التي تتقل في سيارات مكشوفة، تجتث فيها الأغنام ما في كروشها بارتياح. نحن الآن عندكم نحيا حياة مرزولة ذليلة. حياة تناهض وتناقض أدنى حقوق الإنسان. أنا الآن أخشى من ديمومة اعتقالي، ولا أجرؤ حتى على التفكير بالاعتاق.

إذا لم يكن بإمكانكم اعتاقنا لأنكم تعتبرونا جزءاً من مجموعة، ولا وزن ولا تقييم ولا قيمة للفرد عندكم، وأوامر الإعتاق لديكم لا تصدر إلا للمجموعات. لأن الإنسان بصفته الفردية الشخصية، لا وجود له في حساباتكم، حتى لو تحطّم جسداً ونفساً، أحيلونا إلى القضاء الذي يمكنه إصدار أوامر فردية بالاعتاق في حال البراءة من التهم، لكنكم لن تفعلوا ذلك، بسبب عدم وجود أدلة موجبة لاعتقالنا لديكم.

ولهذا سأسعى ما دمت حياً، لإيصال صوتي إلى أقصى مداه، وحتى لو أعدتموني إلى الزنزانة الانفرادية، فإنني لن أتوقف عن الصراخ. سأناضل كالحيوان الجريح، ولسوف أحقق اعتاقي يوماً، أو أموت، لأن دوام الحال من المحال. ولأن الشمس ماضية في جريانها المستقر لها، وستظل تقوم بالفعل ذاته إلى الأزل.

ثم هدأ وخفف نبرة صوته وقال بخفوت:

كنت وما أزال يا سيدي أحلم بالعدالة، وإحقاق الحق بين الناس أجمع، أحلم بمجتمع ينال الفرد فيه أجره، بما يتناسب وجهده وعطاءه الفكري، في دولة حرّة كريمة تتعامل مع غيرها من الدول بلغة كونية واحدة، وعلى قدم المساواة.

ثم هدأ أكثر وقال بأسى:

أرجو أن تعتبر عرض الحال هذا، صرخة إنذار، لا صرخة توسّل، وأنا أشك بأن ما عرضته عليك سيسمعه أحد غيرك، لكنني عرضته لأريح

نفسى من ثقل يضغط صدري، لأفرغ ما بداخلي من شحن يكاد يقتلني،
ولكيلا تتهمني نفسى بالتقصير.

أنا لا أريد منك شيئاً لا تستطيعه، بسبب موت العدالة لديكم، لكن
عدالة الحسيب الرقيب حيّة لا تموت.

مجتبى - الذي كان له أسلوبه في إلزام الطرف الآخر بالاستماع -
استطرد:

أصبحت الدنيا تحتاج إلى سفينة نوح، لتطفو فوق الأمواج، وليطفو عليها
ذلك البعض من بني الإنسان الذين ظلّوا على إنسانيتهم، فوق دوّامات
الخراب الاجتماعي الهائل:

وأخيراً فإني أقدرّ باحترام سعة صدرك، وأشكرك على حسن إصغائك.
طاف في وجه الضابط مشروع ابتسامة، وضغط زرّ آلة تسجيل عن
يمينه، فعرف مجتبى بأن كل ما قاله قد سُجّل، فتفاهل، وتأكّد بأن ما
قاله لن يكون بذاراً على صخر.

ثم نقر الضابط، وجه الطاولة، بأصابع يده اليمنى تباعاً وقال:

يمكنك الانصراف، ففتح الباب وجاء من يعيده إلى المعتقل.

بقيت تفاصيل تلك المقابلة، نقطة مضيئة، إشراقة أمل، شعاع نور، في
ذاكرة مجتبى طيلة حياته، لأنّ ثمة بصمات، ثمة تواريخ في الحياة، لا
يمكن أن تنسى.

* * *

أعيد مجتبى إلى المعتقل، رافع الرأس، لأنه شعر بنفسه أنه كان لامعاً،
ومقنعاً. وأنه استطاع أن يوصل إلى الضابط كل ما يريد.

عاد من المقابلة والفرح يتفجر في داخله كطوفان. الأمر الذي أثار الريبة
في نفوس رفاقه في المعتقل.

خاصّة أنه عاد وشكله (هيئته، شعره، ثيابه، وجهه، بريق عينيه...) كما ذهب وأجمل. ولا يوجد عليه ما يوحي بخضوعه لأي تحقيق، بالرغم من طول الوقت الذي استغرقه هناك، بدا مشرقاً لأنه فرغ ما بداخله من شحن.

ارتاب رفاقه في أمره، وشكّوا بأنه يتجسّس عليهم، فأشاحوا بوجوههم عنه. وعلى الفور تدارك الأمر بأن بسط لهم الواقعة بالتفاصيل. فاقتنعوا بما سمعوا. وأعجبوا بمبادرته ورجولته، وقال له الرفيق (فتحي):

الآن ستال مكافأتك، وسنصدر أمراً إلى كل رفيق، بتسليم ما يغسله من ثياب إليك، لتشرها له في الفسحة السماوية. تلك الفسحة التي كان مجتبي يسرّ كثيراً حينما يخرج إليها، ليمارس فيها بعض التمارين الرياضية، وينشر الثياب رقصاً، وهو يتطلع إلى السماء.

* * *

ذات يوم، وخلال فترة الغداء، فتح باب المعتقل، مع ضجة في الخارج مثيرة للانتباه، ودفع إلى داخله رجل قمّرته الشمس، مع السباب والشتائم المتبادلة بينه وبين السجّانين الذين أدخلوه.

كان الرجل منفوش الشعر، مكدوم الوجه، ممزّق الثياب التي بلّلت بما يسيل عليها من دم من جبهته وأنفه. وحتى بعد أن أغلق الباب وغادر السجّانون، استمر يسبّ ويشتم بصوت مرتفع، مشيراً إلى ما وصل إليه الشعب من جوع وحرمان وقلق، وهو يتفرّس الوجوه علّه يلقى من يتعاطف معه، وسرعان ما عرفه أحد المعتقلين بأنه رجل أمن، ونبه الجميع إلى ذلك.

اقترب مرّة من مجتبي علّه يحصل منه على أية معلومة، لكنه كان منه يقظاً وقادراً على نقله بلباقة إلى جمال الطبيعة بالمصايف السوربيّة.

وفي التوقيت الذي جيء به إلى المعتقل، انسلّ خارجاً بهدوء، بعد أن أمضى فيه عدّة أيام، وبعد أن أطلق عليه المعتقلون اسم (خروف السجون).

* * *

وقف مجتبي مرّة على قدميه، ليتمكن أحد رفاقه من مدّ رجله بطولهما أثناء نومه، وطال وقوفه، ساهياً عن نفسه. هارباً من واقعه المأزوم، كواقع محكوم بالإعدام أجل تنفيذ حكمه، إلى وقت لا يعلمه.

كان مأخوذاً بكلّيته إلى طفليه وعجوزيه، وزوجته والبلد، عندما طأطأ أحد رفاقه رأسه إلى كعب قدميه، ونهشه كالكلب مع النباح السريع الخفيض، فخيّل له أن كلباً حقيقياً قد عضه، وقفز إلى الأعلى رعباً، ليقع على بطن رفيقه النائّم، ويرى رفاقه يضحكون حيث قال أحدهم: لا تزعل يا رفيق إن (خزعلأ) أراد ممازحتك، وإيقاظك من الشرود الذي كنت فيه.

مضى على تلك الواقعة أكثر من نصف قرن ولا يزال مجتبي يذكر شيئاً من وجوه الذين كانوا معه في المعتقل، ويترحّم على من قضى منهم داخل المعتقل وخارجه.

* * *

صراخ ليلي عنيف، وقرقعة سلاح أمام المعتقل، وثلّة من الجنود المدججين يقتحمونه، ويُخرجوا أحد المعتقلين إلى فسحة الغسيل، يطلقون عليه النار على مرأى من الجميع، بعد أن أمروه بصلب نفسه على الحائط. وسرت همهمة بين المعتقلين، بأن انقلاباً عسكرياً قد حصل، لصالح أحد الأحزاب، وظن الرفاق بداية بأن حزبهم من قام به.

غير أن أساريهم التي تفتحت، ما لبثت أن تفضنت، بعد أن علموا بأن مزيق حزيمه ونقيضه هو من قام بالانقلاب، وهو من كان وراء واقعة اعتقالهم لتخلو له الساحة.

وتعالّت الأصوات من داخل الزنازين، مطالبة من في الممرّات بإعلامهم عمّا يحدث خارجاً.

منذ أن عرف مجتبي، الرجل الصامت الوقور (فتحي) لم يره في مثل ذلك الضيق والكمود، فاتجه نحوه بضحكة عريضة (وشرّ البليّة ما يضحك) وقال: فتحي أيها الرفيق أفتنا، هل سنخرج سالمين من هذا المعتقل؟! لم يتسم فتحي، بل تنهد كمن يحمل همّاً بثقل جبل، وبقي وجهه مكمدّاً وهو يقول:

(الآن الآن يا رفاق، انقطع الأمل).

(عباس المندلاوي) رجل عراقي من بغداد، في العقد الخامس من العمر، ضخّم الجثة، كروي الرأس. حاضر النكتة جهوري الصوت، تاجر مخدرات.

دخل المعتقل حينذاك، لسبب يتصل بتجارته، وما لبث أن خرج، وفور سماعه نبأ الانقلاب. وإن حزب من كان معهم في المعتقل قد قام فيه، هرع إليهم محملاً بالهدايا والأطعمة، ونادى بصوته من أمام باب المعتقل (هاي هاي حبايي، جيت أشوفكم، جيت أبارك، جيت أشارك، باشر تستلمون مراكز شبييرة هواي، فلا تتسون خويكم عباس المندلاوي).

وعندما شاهد ما على الوجوه من تجهم ووجوم قال:

(يا باي هسع عرفت، أنتم من هاي «مشيراً بيده اليمنى إلى اليسرى» ما من هاي «مشيراً بيده اليسرى إلى اليمنى») وقفل راجعاً بما حمل.

أيام رتيبة مرّت، انزوى فيها الرفاق في الممرّات، جماعات، جماعات، يتهامسون فيما بينهم، حول المصير، بيأس وقنوط، ودارت الأرض حول نفسها العديد من المرّات غير أن أشعة الشمس لم تدخل المعتقل، ولم توقظ مجتبي الذي كانت تمزّقه مخالب القلق وأنياب الأفكار من الداخل، ولم يستمتع بنسيم الصباح الساجي.

لكنه بالرغم من كل ما فيه، لم يقنط، بل تنامى في نفسه الأمل، الأمل بالإشارات التي عودته، على المفاجأة عند ملمات كثيرة، أخرجته منها بيسر، حيث كانت تتناطح الواقع وتدخل.

* * *

مجتبي وأحمد كانا متلازمين معاً منذ أن تعارفا قبل عشر سنوات من اعتقالهما. لم يلاحظ خلالها على أحمد أية حالة تشنّج عصبي.

لكنه ذات مرّة، وأثناء تناول طعام الغداء داخل المعتقل، بدرجة حرارة تربو على الأربعين، وقع مغشياً على الأرض.

وقع مثل غصن صعقه برق السماء، وأخذت عضلات وجهه، وعضلات عينيه، بحركة متلاحقة سريعة، وأسنانه تصرّ بقوة على بعضها، وأخذت أطرافه العلوية والسفلية، تتحرك حركات عشوائية، متلاحقة لا إرادية.

نقله رفاقه قرب الباب علّ هبة هواء نظيف تساعده، لكنه أخذ يتخبط تخبط الديك المذبوح ذبحاً سيئاً، وتدفق الدم من أنفه وفمه ولسانه الذي عضه بأسنانه وتجمع زبد في زاوية من فمه، وجرى بول من تحته على الأرض.

ولما لم يكن مجتبي قد رأى مثل هذه الظاهرة قبلاً، لا على أحمد ولا على غيره، فقد أيقن أن رفيقه صائر إلى الموت حتماً.

وفي لحظة الخوف والقلق تلك، تطلّع مجتبي إلى السجّانين الذين يراقبون الحالة من الخارج، عوضاً عن الإسراع في طلب الطبيب، وفقد

أعصابه هو الآخر. لدرجة ما كان في وسع العقل البشري، أن يقرأ أسرار عقله من الألم المذعور الذي ران على وجهه. فانتفض كالديك المبلول في بركة، وأخذ يكيل الشتائم لهم، ولأسرهم، ولحكومتهم صارخاً:

أيها الخنازير، يا أولاد الكلاب، يا من تفتقرون إلى القلوب، يا من بالث عليكم أمهاتكم لتداوي جروحكم من حواف التتكَ الصدئة، لا نريد منكم علماءً ولا معرفة. لا نريد شهادة تحمل اسم بلد، شعبه همج رعاع، ولا اسم حكومة لا تقيم للإنسان وزناً.

ومن الخارج صرخ شرطي غاضب مهدد (والله لولا خويك جاعد يموت هسَّ لجعلتك تنام حده).

وبسرعة فائقة، اندفع الرفيق (فتحي) إليه، عاضاً شفته السفلى بأسنانه، وسحبه بقوة إلى الداخل، خوفاً عليه من بطش العناصر. ثم جاؤوا بمرض دسّ في أنفه قطعة قماش بقوة، وضمّد جراحه، وأعطاه حقنة مخدرة وقال:

هذا هو مرض الصرع، إنه مرض غير خطر.

.22.

اعتاد مجتبي في طفولته، منذ أن كان راعياً، ثم تلميذاً، ثم طالباً، فموظفاً، أن ينام باكراً، ويستقيظ باكراً، ينام والناس سهارى، ويستقيظ والناس نيام. لينجز ما عليه، ليستوعب ما في دروسه، بعيداً عن الثثرة والقييل والقال.

حوالي الساعة الثانية عشرة من ليلة بدرية، أيقظه رفاقه الذين كانوا يلعبون الورق بجانبه قائلين: استيقظ يا مجتبي، فقد أطلق سراحك وانعتقت. رفع رأسه، وفتح عينيه، وأجالهما بمن حوله وقال:

على فرض أن ما تقولونه صحيح، فإن نهاري لا يبدأ قبل الساعة الرابعة صباحاً، وأطبق عينيه، واتكأ.

ضحك رفاقه، ونهره شرطي كان يقف إلى جانبهم بقوة، قم يا رجل، لقد أطلق سراحك وعليك المغادرة فوراً.

حينما وصلت المعلومة إلى عقله الباطن، ورأى رفيقه أحمد يرتدي ثيابه للخروج، قفز كما تقفز الصقور باسطة أجنحتها ساعة الانطلاق.

سأل مجتبي الشرطي الذي كان يرافقهما - بعد أن ودعا رفاقهما بالعواطف والدموع: إلى أين تذهب بنا الآن؟ فقال:

سأرافقكما إلى خارج المنطقة الأمنية فقط، ثم تتصرفا وشأنكما. مجتبي الذي كان بكفاحه قد لقي مساعدة الملائكة، مساعدة القوى السماوية، التي تضع كل شيء في نصابه - قال:

هكذا وبهذه البساطة، تخرج من المعتقل ليلاً، وليس بين أيدينا أية وثيقة، تشير إلى إطلاق سراحنا، في الوقت الذي لا بدّ فيه، أن تكون أسماؤنا وصورنا قد عمّمت على كافة النقاط الأمنية، ولاسيما الحدودية منها، وفي الوقت الذي سنتوجه فيه إلى مركز انطلاق حافلات (بغداد - دمشق) فمن يضمن لنا عدم اعتقالنا مجدداً قال (مجتبي).

سكت الشرطي فأدرك (أحمد) خلفيّة ذلك السكوت، وناولته ديناراً قائلاً:

(هاك عيني أبو اسماعيل، كرمي لعينيك وبشارتك).

أمسك الشرطي بيد مجتبي قائلاً لأحمد: انتظرنا هنا ولا تتحرك. صعدا بالمصعد إلى الطابق الرابع، ليدخلا مكتباً كبيراً، كصالة معمل، وتقدّما معاً إلى طاولة كبيرة في صدر المكتب، ومدّ الشرطي يده إلى كتاب على وجه حافظة أوراق، ودفعه إلى مجتبي قائلاً:

خذ يا أخي هذا حقكما.

الأمر الذي جعل مجتبي يعتقد أنّ الشرطي هو من وضع الكتاب هناك للابتزاز. ثم مضيا معاً، إلى حيث كان ينتظر أحمد، ورافقهما إلى خارج المنطقة الأمنية وانصرف.

23.

انطلقا فوراً إلى مركز انطلاق حافلات (بغداد - دمشق) وصعدا إلى الحافلة بعد منتصف الليل، وقبل أن تتطلق كان مجتبي قد استأنف نومه، غير آبه بمطبات الطريق وحفرها، ولا بالضجيج الذي ينبعث من الداخل والخارج، إلى أن وصلت الحافلة المركز الأمني العراقي في (الربطية).

أثناء قيام العناصر الأمنية بالإجراءات الروتينية، كان مجتبي يتناول كأس شاي في الاستراحة، ويده على كتاب الإعتاق، منتظراً سؤالاً عنه، ولما لم يحصل ذلك، أعاد الكتاب إلى محفظته، ليحفظ به بين أوراقه لوقت طويل.

ثم غمره حبور عام إثر امتداد بصره أفقياً عبر الصحراء، وعلواً حتى نجوم السماء الزرقاء، بعد أن كان قد ألف ارتداده عن جدران الزنازين وسقوفها، ولم يكن في حينه يفكر بما لاقاه من معاناة، بل كان يفكر بنعمة الله التي أخرجته من المعتقل.

صعد الركاب مجدداً إلى الحافلة، وجلس مجتبي على مقعده، بينما كان أحمد - الذي لم ينزل من الحافلة أصلاً - يغط في نوم عميق. وبين الفينة والأخرى كان بصر مجتبي يقوده إلى الفتاة الأوروبية، الجالسة على المقعد الموازي لمقعده، مستغرقة بمطالعة كتاب لا ترفع عينيها عنه، (تبيّن لاحقاً أنه رواية لشكسبير).

ابتدأ صباح (مجبتى) الذي اتحد فيه الفجر والإشراق والهدى، مع الأمل الذي تشعّ منه الابتسامة والبهجة والإقبال على الحياة، وهبطت عليه الطاقة الحيويّة، فجعلته يحسّ بما خلف الجدار. متجاوزاً الحواجز والزمن، وهذا ما قاده إلى التفكير بواقعة إطلاق سراحه التي لا تكاد تصدّق.

هل تم بمداخلة من السفارة السوريّة في العراق؟

- أم بمسعى من الحكومة السوريّة عبر وزير خارجيتها؟

- أم بمسعى ذلك الضابط الذي قابله في المعتقل. واستمع إلى ما قاله،

وتفاعل معه، وسجّله على شريط خاص؟

- أم بالطريقة التي أضيئت له فيها الزنزانة المظلمة، بنور من داخله، لا

حدود له، رأى من خلاله الكون، وهو يتلو صلاة الراهب (هيبا) التي ما

انقطع عن ترديدها في المعتقل؟

- أم بالإشارات التي كانت تتبعه منذ الصغر؟

وانتهى إلى أن ذلك قد تم بأمر الله.

- سلكت الحافلة طريقاً تريبياً صحراوياً، ووصلت عصر اليوم ذاته

إلى (مركز أبو الشامات) بالقرب من مدينة دمشق.

كان المركز يعجّ بمئات المسافرين المنتظرين نتائج التحاليل المخبرية،

للتأكد من خلوّهم من عدوى (الكوليرا) التي كانت منتشرة في العراق

حينذاك (حجر صحي) وبالكثير من وسائل النقل الصغيرة والكبيرة ذات

الثماني عجلات.

لم يكن بجوار المركز أي نشاط سياحي أو تجاري، أو بيوت سكنية،

حتى ولا شجرة يمكن اللجوء إلى ظلّها، باستثناء شجرة صغيرة من

(الكافور). ودكان صغير يحتوي على بعض المعلبات والسجاير والمشروبات

الغازية والكحولية (دكان أبي كابي).

والمنتظرون كانوا من مختلف الجنسيات والقوميّات والأعمار، وأطفال صغار يبكون فتتألم معهم أمهاتهم، ولا من سبيل لإسكاتهم إلا بالضم إلى الصدور.

وعند مجيء سيّارة الخبز كان الناس يتدافعون ويتراكضون، للحصول على ما يسد الرمق، وخاصة بعد أن نفذ ما لدى أبي كابي من المخبّبات والمعجنات.

وبقيت تلك الفتاة ممسكة بروايتها باليد والعين، الأمر الذي أثار فضول مجتبي، فدنا منها متسائلاً - بعد التحية - ما إذا كانت بحاجة لمساعدة ما، فتبسّمت ضاحكة وقالت ساعد نفسك إن استطعت، فضحكا معاً، وجرى بينهما إثر ذلك حوار تغلبا بواسطته على ملل الانتظار.

أخيراً جاءت نتائج التحاليل، وسمح لكل من كان في تلك الحافلة بالصعود إليها، ودخول دمشق، وأخذ كل من مجتبي وتلك الفتاة يتراشقان بسهام العيون.

ـ24ـ

كان مجتنبى قد فكر بداية. بوقع تأخر عودته على والده وزوجته والأهل، فحاول طمأنتهم، ولو كذباً.

كتب لهم رسالة مفادها، أن عودته ستتأخر لمدة غير محددة، بسبب المشاركة بمخيم عملي إلزامي، تجريه الكلية في ألمانيا.

غير أن زميله (جمعة) - عند عودته - جلب معه إلى أهله، ما تبقى من حوائج هناك، وأعلمهم بالواقعة.

وعلى الفور انتشر نبأ الاعتقال بين الأهل، والرفاق، والأصدقاء، والمعارف. وحده والده العجوز لم يعلمه أحد - مع أن قلبه كان قد تلقى النبأ قبلهم - وبقي عرضة للشك والقلق.

كان يشاهد وهو يسير على دروب القرية، ملقياً ذراعيه على عصاه التي أسند بها ظهره، وهو ينوء كما ينوء الثور تحت النير في أرض بائرة.

كان قلبه يحترق وهو يلهج بالدعاء له، قياماً وقعوداً. وصورته لا تفارق مخيلته. كان يقوم موهن الليل، خاشعاً متهجداً، يدعو لفلذة كبد واقعة في محنة (والدته كانت قد توفيت).

- وانقسم من يعنيههم أمر تلك الواقعة، وراحت الحكايات عن قصة اعتقاله، تتخلق وتنبني على ما يحمله الناس له من ود وإعجاب، أو غيرة

وكره. الأهل والمحبون الذين حاولوا تقصي الواقعة لدى المسؤولين بالمحافظة، دونما نتيجة تذكر فانطوا على أنفسهم مأزومين، لا يعرفون ما يفعلون سوى الترقب والانتظار، وألسنتهم تلهج بالدعاء.

وآخرون قالوا: لقد جنى مجتبي على نفسه بطمعه، ألم تكن سورية بكاملها تشبع طموحه بالنضال، وهل ضاقت عليه بأسوارها، حتى امتد الأمر به إلى العراق. فوالداه أصلاً هربا من نير العبودية في جنح الظلام، حاملين ولدهما البكر، ووجبة طعام واحدة، وبنيا حياتهما من الصفر، إلى أن صار لهما أرض وبيت.

هو وحده من أبناء القرية، من أتيح له الحصول على شهادة ثانوية في وقت كان الذين حصلوا عليها بالمنطقة يعدون على الأصابع.

هو ثاني اثنين حصلوا على شهادة المدرسة الحراجية بالمحافظة في حينه، وأتيح له في سبيل ذلك الاطلاع على أغلب البلدان الأوروبية والعربية.

أما كان من الأفضل له، أن يحمد الله على ما وصل إليه، ويحمل نعمته ويستقر وخاصة بعد أن تزوج؟

هو الآن يدفع ثمن طمعه، والطمع ضرر ما نفع، وغيره من الأقوال التي تضايق الروح البشرية.

والبعض من زملائه الحاسدين قالوا:

لا أعانه الله، يستحق هذا وأكثر، كان يسعى ليصبح مهندساً ويتقاضى تعويض المهندسين، ليصير مديراً، وربما أكثر، ونحن نبقي نراوح بالمكان مهملين.

كانوا كالثعابين، وقد اشرببت، تنفث سمومها وهي تفتح، وكانوا في أعماق أعماقهم يشعرون بالسعادة لاعتقاله، هناك بعض الناس وفي أحلك الظروف يلهون بالحسد والدناءات.

25.

حينما خرجا من السجن، كانت السنة الدراسية الجديدة على الأبواب. وعليهما ألاً يطبلا المكوث عند الأهل، لأنهما في السنة الأخيرة للتخرج. وكان قد جرى بينهما، أثناء الانتظار بالحجر الصحي حوار اتصف بالجديّة والموضوعيّة حول العدول عن متابعة الدراسة بالموصل، تحسباً لما يمكن أن يحصل لهما من أذى، والاكتفاء من الغنيمة بالإياب، أو العودة إليها، للتعويض عن بعض معاناتهما، بالحصول على الشهادة. واستطاع (أحمد) الذي لم يكن يسمح لمشاعر الإحباط بالتسلل إلى ذاته أن يقنع (مجتبى) بوجوب المتابعة، واتفقا قبل الوصول إلى دمشق. على تاريخ وتوقيت اللقاء في محطة قطار حلب.

ثم توجه كل منهما إلى مركز انطلاق حافلات النقل الخاصة ببلده.

* * *

وصل مجتبى مدينته ليلاً، ومن دون أن يعلم قريباً، أو يتصل بصديق فيها. استأجر درّاجة نارية كبيرة، أوصلته القرية بعيد منتصف الليل. واستقبله الأهل والأصدقاء في صباح اليوم التالي بالتهاني والتبريك، وحتى أولئك الذين كانوا قد سرّهم اعتقاله.

قبيل الغروب، والشمس تحتضر على فراش من السحب الخرافية، جلس مع والده، جلس مع السنديانة المئوية، على مصطبة البيت، وهو ينفث دخان غليونه الفخّاري الأثري متصاعداً في الهواء.

كانت تجاعيد وجهه تؤكد أن عمره قد تجاوز المئة، لكن ما في عينيه من بريق وألق، وما في كلماته القليلة من حكمة يكذب ذلك.

انفرطت دمعة من عين العجوز، وجرت متمهلة على وجهه، حتى إذا لامست شاربه. قام مجتبي بمسحها وتقبيل خط جريانها، وعاد إلى مكانه يتأمل الأمارات التي ارتسمت على وجه العجوز الذي أتم الكفاح وراح يقف على عتبة الموت.

العجوز وهو يلقي بنظرة هادئة إلى الوراء قال:

أتدري ما يبكيني الآن يا مجتبي؟

هذي بلا شك دموع الفرح يا والدي فقال:

أبكي يا ولدي لأنني لم أعرف حتى الآن السبب الحقيقي في تأخر عودتك إلينا عن مواعدها.

أنا يا ولدي لم أكن أسمع ما كان يدور من حديث بين إخوتك والأقارب، حول سبب تأخر عودتك، وهم يتهامسون بجاني. لكنني كنت واثقاً أن الأمر يتصل بمأزق، يتصل بكرب عظيم تعانيه.

كانوا يخفون ذلك عني حرصاً على مشاعري، ولم يكن باستطاعتي أن أفعل لك شيئاً سوى التضرع إلى الله أن يعيدك إليّ سالمًا، وها هو والحمد لله قد فعل، وأصبح من حقي أن أعرف منك شخصياً، ما كنت تعاني.

تنهّد مجتبي ملء رئتيه وقال:

نعم يا والدي، لقد كانت هواجسك في محلّها، لقد كنت واقعاً في كرب عظيم خشيت ألا يفرج.

مرّات عدّة كان اليأس يطغى على مشاعري، ومرّات أكثر كان يراودني الأمل.

والآن الآن أدركت يا والدي، بأن إخراجي من الزنزانة المنفردة بعد ليلة واحدة فيها، بأن إطلاق سراحي من المعتقل، قد تم بفضل الله ودعائك.

ثم تدانيا من بعضهما وتوحدت دموعهما معاً.

عاود العجوز النظر إلى وجه مجتبي من جديد وقال:

دائماً كنت أدعو الله يا ولدي أن ييقيني حياً متعافياً متماسكاً نفساً وجسداً، لحين رؤيتك، وها هو قد استجاب إذ أخرجك من السجن، وجاءني بك سالماً، وأنا الآن أشكره وأبتهل إليه، أن يأخذ أمانته بحضورك، وقبل أن تسافر من جديد، لأن وقت الفراق قد حان، وبدأ النهار بالأفول.

ثم برز على وجهه تعبير جديد، وشيء قوي خالد ظهر في بحة صوته، كأنه ينجرف بسرعة مثل ورقة تين جافة وقعت في مهب الريح.

وألقى نظرة إلى الأفق البعيد، ثم نقلها إلى وجه مجتبي، ورفرفت بسمة هادئة مسامحة على شفثيه، وضحك كطفل، وأمال برأسه إلى صدره وأسلم الروح.

وجرت له مراسم دفن هادئة، حضرها جميع أهالي القرية، وبعض من أهالي القرى المجاورة.

وتم دفنه بجوار مزار القرية في ظل شجرة سنديان يشبهها عتقاً.

وبقيت في نفس مجتبي الذكريات، وبقي صوت فيروز (يا سنين اللي رحنا ارجعيلي).

26.

الزميل الذي التقياه مصادفة في محطة قطار الموصل، حينما وصلها قادمين من حلب، حدثهما عن الأثر العميق الطيب الذي تركته واقعة اعتقالهما، وتأدية امتحانها مكبلين، في نفوس الطلبة والأساتذة، كما أعلمهما بنجاحهما إلى السنة الأخيرة، وبأن الرجل الوقور المهاب قد أبعده عن عمادة الكلية واستعيض عنه بآخر.

استقبلهما بفتور عميد الكلية الجديد، أثناء مقابلته لهما، وأراحهما من الكلام قائلاً:

وضعكما الآن حرج بالكلية، والأمن ممسوك بقوة من قبل طلبة (الاتحاد الوطني) الذي كانت علاقتهما بأعضائه غير جيدة، وسأتدبر أمر سكنكما ضمن حرم الكلية، وبشكل معزول عن سكن بقية الطلبة، قليلاً للاحتكاك، وأتكفل بضمان سلامتكما ضمن حرم الكلية فقط، ما لم تمارسا أي نشاط سياسي من أي نوع كان.

وبذا أصبح حرم الكلية سجنًا كبيراً لهما، محاطاً بالأسلاك الشائكة المعقدة من كل جهاته، غير أن السجن هذه المرة، لم يكن ثقیلاً عليهما.

الكلية ومزرعتها، كانتا رحبتين واسعتين، تحتويان الكثير من الأنشطة الرياضية والثقافية ورفاقهما بالكلية ابتعدوا عنهما وتجنبوا ملاقاتهما.

توطدت علاقة مجتبي مع الأساتذة الألمان والهنود في السنة الدراسيَّة الأخيرة بعد إتقانه اللغة الإنكليزية، وأخذوا يعتمدون عليه بالتدريب العملي للطلاب وخاصة لمادة (إدارة وتنظيم الغابات)، التي كان قد استوعبها جيداً في أثناء دراسته في المدرسة الحراجيَّة، وخلال مرافقته الخبير الروسي لدى (محطة البحوث الحراجيَّة).

27.

الدكتور (أبو سنان) أستاذ علم الاقتصاد بالكلية، كان بالأربعينات من العمر، مزوفاً ح، من أحد أو قضيّة، له ولدان صغيران كوجه القمر. دعا إلى منزله في جناح سكن الأساتذة ضمن حرم الكلية، مساء ليلة من منتصف العام الدراسي. عشرة من الطلبة العرب، بما فيهم (مجتبى وأحمد).

دعاهم إلى حفل عشاء خاص تكريماً لهم. وأولم بسخاء، وفي الأسبوع التالي لتلك الدعوة، وفي اليوم ذاته (الاثنين) والساعة (العاشرة ليلاً) جاء شابان إلى منزله - كان الشيطان قد أقفل قلبيهما ورمى المفتاح في البحر - وقرع أحدهما الباب، وما إن فتح له ودعاه إلى الدخول، حتى عاجله الآخر الذي كان يتلوى وراءه بصليّة من (الكلاشنكوف) التي كان يخفيها تحت رداءه، فخرّ صريعاً على باب منزله، على مرأى من زوجته وأولاده. واختفى القاتلان، بالرغم من أن حرم الكلية كان مسيجاً بالأسلاك الشائكة، ومحاطاً بالحراس، وكذلك جناح سكن العائلات ضمنه. وحينذاك شعر كل من مجتبى وأحمد، بخوف حقيقي لازمهما، فأمسكا عن الناس، وناقشا لعدة أيام أمر المغادرة أو البقاء، وعاشا بألم وقلق طيلة الأشهر الثلاثة التي أمضيها بالكلية بعد تلك الواقعة بما فيها فترة الامتحان.

ـ28ـ

اقترب موعد الامتحان، وانهمك الطلبة بالتحضير له، وحزّ في نفس كل من (مجتبى وأحمد) أنهما لا يستطيعان الخروج خارج حرم الكلية - لأسباب أمنية - ليستمتعا بالمذاكرة في المقاهي الليلية المكشوفة على نهر دجلة على صوت (أم كلثوم) وألحان (عبد الوهاب) والوجوه السمحة للزميلات، اللواتي كنّ يهيئنّ الأدمغة داخل الرؤوس، لتقبل المعارف ببسر، في موقع تتلوى فيه ترعة وسط دغل من النخيل المرصوص، على شكل نصف قمر.



بنتيجة الامتحانات العملية والنظرية نال (مجتبى) درجة الشرف. وكلف بإلقاء كلمة خريجي الكلية، في حفلة تخرج هادئة تحت السماء، عندما بدأ الهلال يتألق دون حرارة، مضيئاً بعضاً من ظلمة الليل الأزرق الهابط على الأرض.

شكر في كلمته التي ألقاها باللغة الإنكليزية، العمادة السابقة واللاحقة للكلية، مثنياً على جهود الأساتذة، وخاصة الألمان والهنود منهم، داعياً زملاءه الخريجين إلى تكريس جهودهم لتخضير الصحارى، وخدمة الطبيعة.

وقبيل اعتلائه المنصة كان قد جال في نفسه:

أخيراً تحقق حلمي، تحققت أسطورتى الشخصية - وربما تطلعت لاحقاً إلى ذروة أعلى - ولقد عانيت في سبيل ذلك الكثير، والتقيت نخب مهندسين، وأساتذة كباراً، ووزراء وسياسيين.

وتجولت في أرجاء كثيرة من العالم، ودخلت السجون والمعتقلات، وتهددت حياتي أكثر من مرة، وتعلمت خلال ذلك الكثير، وتأكدت أن المعاناة هي المرشد الأعظم في صعود الإنسان.

ثم تشخص القول الفلسفي (من سعى بحق لتحقيق حلمه، لتحقيق أسطورته الشخصية، فإن الكون كله يقف معه) لعينيه بصورة، فقال ومثل هذا لا يحصل إلا للقلّة من أبناء البشر.

وفعلاً كاد مجتبي لاحقاً أن يصل إلى أقصى مما وصل إليه، بإشارة أضاءت طريقه كسابقاتها من الإشارات التي كانت سبباً بارتقائه، لولا أن سيطرت عليه ظروف مادية، وأسرية واجتماعية، أعادته إلى البلد بعد ثلاثة أشهر من إيفاده ببعثة خارجية، إلى بلد أجنبي لنيل شهادة عالية باختصاصه (دكتوراه).

ولربما كانت عودته لأسباب أخرى تتصل بفتور عزيمته، وتفلن القمة النامية لجذره الوتدي، وانكفاء أسطورته عن مدّه بالإشارات، لأنه لم يعد أهلاً لذلك.

كان الرفيقان قد حزما أمتعتهما باكراً، وفور انتهاء حفل التخرج ليلاً، ودعا الأساتذة والزملاء، وصعدا إلى سيّارة الأجرة الصغيرة التي كانت بانتظارهما، بعد أن أوكلا أمر استلام وثائق التخرج وتصديقها إلى طالب سوري ليس له مشاكل أمنية (جمعة).

29.

بعيد الانطلاق بالسيارة من الكلية باتجاه الحدود السوريّة، شاهدا ضوءاً لآلية تتحرك خلفهما مسرعة، فتوجسا خيفة.

لاحظ السائق ما اعتراهما من قلق، فسأل ما الخبر يا شباب؟

أجابه مجتبي الذي كان يجلس إلى جانبه: يا أخي.

نحن الآن رفاق طريق، وللرفيق على رفيقه حق، وحقك علينا أن

نكاشفك بما اعترانا الآن، ولك أن تتصرف بعد ذلك كما يليق بك.

نحن يا أخي منذ بداية السنة الدراسيّة بالجامعة، إلى أن صعدنا سيارتك

هذه لم نخرج خارج حرم الكلية خطوة واحدة، بتوجيه من عميدها، وذلك

لأن هناك من يترصدنا لإيذائنا.

علماً بأن جهة أمنيّة كانت قد اعتقلتنا في العام الماضي، ثم أخلت

سبيلنا.

ونحن نخشى الآن من تعقب بعض الأوغاد لنا لقتلنا قبل دخولنا الأراضي

السورية. كما قتلوا الدكتور (أبو سنان) أستاذ الاقتصاد بالكلية على باب

منزله منذ ثلاثة أشهر.

ضرب السائق جبهته بكفّ سمع له فرقة وقال:

إذا أنتما الطالبان اللذان كانا معتقلين العام الماضي في مخفر (حمام العليل)؟

أجابه (أحمد) من الخلف نعم.

أحاط السائق رقبة مجتبي بيده اليمنى، وبقيت يده اليسرى على المقود وقال: هل تعلمان بأنني أنا الذي كنت سأهريكما من المخفر حينذاك وبهذه السيارة لو أنكما رغبتما في ذلك؟

وأنا الذي كان يوصل إليكما مناسف الطعام، بتكليف من المنظمة الحزبية.

وأخرج من تحت مقعده مدفعاً رشاشاً (كلاشنكوف) ولقمه قائلاً: أية ملاحظة عداية تبدو من الآلية التي تسرع خلفنا، سأحرقها فوراً فلا تقلقا. وتمهل عند اقتراب تلك الآلية، ومد رقبتك من النافذة كرقبة نسر، ماسكاً البندقية استعداداً، لكنهم تنفسوا الصعداء عندما تجاوزتهم بصورة عادية.

تلك الآلية كانت تتطلق بسرعة فعلاً، ولا يمكن لآلية أن تتطلق ليلاً بمثل تلك السرعة، على هكذا طريق مليء بالحفر إلا لأمر جلل.

عند المنطقة الحدودية نزلوا من السيارة، وتعانق الكل تهنةً وسلاماً. تعانقوا كأطفال ثلاثة عاد إليهم أبوهم بعد طول سفر.

وعبثاً حاولوا مع رفيقهما السائق، أن يتناولوا معاً طعاماً سورياً، في بلدة (اليعربية) غير أنه اعتذر لارتباطه بموعد هام آخر.

عاد ودموع الحب والوفاء تنهمر من العيون... يا الله ما سر هذه الحياة؟! يتلاقى البشر، ثم يفترقون كأوراق الشجر التي يطردها الريح.

وعبثاً تحاول الذاكرة أن تحتفظ بوجوه الأحبة وأجسادها، وبعد مدة... لا يبقى من الرسم إلا الاسم.

جثا كل منهما على ركبتيه، وعانق أبويه الأرض والسماء، وبكى
مجتبي شكراً لله، لأنه آمن بأسطورته الشخصية منذ البداية، وسعى
لتحقيقها وصارت الحياة بالنهاية معه سخيّة.

ـ30ـ

قررنا أن يتعشياً في أحد السُّرادق (المقاصف) المنتشرة على ضفة نهر (الخابور) الذي ينساب بهدوء كالزمن، في بلدة (القامشلي) ليغسلا بعض ما علق في نفس كل منهما من وحول.

أرادا أن يزيلا ما بنفسيهما من رواسب، بالرغم من رسوخها، إذ أنها كانت كالوشم على الأجسام لا تزيله المنظّفات.

ومثلما يصل السابح في بحار المخاطر إلى شاطئ السلامة مبهور الأنفاس، بعد أن نجت نفسه، وصلا أرض القامشلي المسترخية على النهر.

وكسرب من الشحارير لدى آخر خيط من الثور، يطيع غريزته والطبيعة، ويحط لدى سماعه صوت تسجيل خاص، على شجرة وزعت عليها قضبان (الدبق) بعناية، نزلا في سُرداق على النهر يصدح صوت فيروز فيه.

كان الجو هادياً موحياً والسماء صافية، بنجومها التي تتدلى فوق مياه النهر، وهو يتهد بلطف، فتعكس صورها إلى الأعلى.

وكانت الموسيقى الرحبانية، التي تثير مشاعر الرّواد وعواطفهم، تبدو رقيقة كالمياه الجارية في النهر والتي تلامس الأقدام دون صوت.

كانت الخمرة قد لعبت برؤوس الرّواد، وانغمس كل منهم بروحيته الخاصة، دون أن ينتبه إلى دخولهما أحد.

قادهم النادل إلى مكان مميّز قرب شجرتي الغرب والصفصاف، التي
تتدلى أفرعها إلى الماء بتحنان.

وملاً الطاولة بأنواع المشاوي والفواكه والمكسّرات والمشروبات،
فانغمسا ليغسلا ما لحق بكل منهما من شقاء.

كانا بمنزلة غصن ريحان ذابل، وضع في برودة نبع متدفّق، فسرت من
جديد فيه الحياة.

لم يسبق لهما أن أحسّا في حياتهما كلّها بتلك الراحة الجسديّة
والسعادة النفسيّة كانت غبطة لا تكبح بعد إرواء الظمأ المزمّن.
قال (أحمد):

أحسّ الآن بأن شيئاً مبهماً يجري في روحي وجسدي، تماماً كما تحسّ
الشجرة بأمر سرّي يصلها من الجذور، فتزهر وتثمر بفعل الزمن الذي هو
كالاسفنجة يمحو كل ما يعلق بالنفس.

وكالمحصول الجديد من عشب الربيع، يغطي بسرعة حجارة القبور،
وتستأنف الحياة مسيرتها لاهية.

قال مجتبي: لك الحق في هذا يا صديقي، فنحن الآن، مهندسان،
نهندس للطبيعة، والكلمة والوطنية، والإنسانية.

أكلا وشربا، فشعرا بأن العالم يخفّ وزنه، والنهر يضحك، والأرض
ترتجّ كجسر متحرّك... فلكل إنسان طريقته الخاصّة بالتعبير عن الحزن
والفرح. عزفت الموسيقى لحناً راقصاً، فالتقى كل من كان بالمقصف على
دبكة شبابيّة معبّرة.

اندفع مجتبي للرقص، ومدّت الأقدام، وتسارعت الخطى بقوة وعنف.
عاد به إلى رقصته التاريخية في ألمانيا...

رنت الأرض فانطلق أحمد وهو يصيح: فلتذهب إلى الشيطان الأقلام
والمحابر والكتب والشهادات والمعتقلات.

كانت الألحان تحلّق صاهلة، والأجساد تتراقص، والأكف تصفّق،
ومثل الفراشات تخفق قلوب العاشقين.

ومن فوقهم همست أشجار الغرب والصفصاف بطريقتها الخاصّة،
ابتهاجاً.

سكتت الموسيقى فعاد الكل إلى كرسيّه وطاولته.

تنهد أحمد وقال: الآن يا صديقي عرفت معنى الحكمة القديمة:
(السعادة هي أن تؤدي واجبك، وكلما كان الواجب صعباً، كانت السعادة
أعظم، السعادة على الأرض هي الفرح.. وإذا أراد الإنسان أكثر من ذلك،
ضاع في متاهة البحث عن وجود شيء لا وجود له).

أنا الآن سعيد، لأنني عرفت الطريق إلى الطاقة الكامنة في داخلي. ثم
تطلّع إلى مجتبي متسائلاً هل يمكنك يا مجتبي أن تحزر ما الشيء الذي
أفكر فيه الآن؟!

وضع مجتبي الكاس من يده على الطاولة، بعد أن نهل منها نهلة،
أعقبها بحبة من الفستق الحلبي، وبصوت عال ومديد لفت انتباه كل من
كان في الشرداق قال:

إنها أكلة الملووك، فقهقها خابطين يديهما معاً. فما هي أكلة
الملوك تلك.

في منتصف السنة الدراسيّة الثانية كانا يسكنان في البيت ذاته الذي
طمرا في حديقته كنزهما من الوثائق.

ذات مرّة عاد مجتبي من الكلية إلى البيت ظهراً، فوجد أحمد منبطحاً
على بطنه جوعاً، حيث لم يكن قد بقي معهما درهمٌ واحدٌ؛ لتأخر وصول
التحويل المالي إليهما.

وجارهما الذي اعتادا الاقتراض منه كلما دعت الحاجة، لم يكن حاضراً في حينه. دخل مجتبي غرفته، وضع كتبه على الطاولة، جلس على السرير، قام عنه، خرج من الغرفة، دخلها ثانية... إنه قلق الجوع.

دخل المطبخ فتش في ثنياه، فوجد بعض الخبز الذي يمكن أن يؤكل، وتحت طاولة الغاز وجد عدة رؤوس من البصل اليابس، وعلى الرف وجد علبة صغيرة من معجون الطماطم.

فرم البصلات في المقلاة، وصبّ فيها ما كان لديهما من زيت، وقبل احمرار البصل على الغاز، فتح علبة الطماطم وأفرغها في المقلاة، وترك ما فيها ينطبخ بهدوء، فأحس برائحة طعام حقيقي، ولاسيما بعد أن أضاف إليها بعض البهارات والملح.

وضع الطبخة على الطاولة والخبز إلى جانبها، ومن الحديقة جلب باقة من ورق البصل الأخضر الذي كان قد زرعه فيها.. ثم أيقظ أحمد قائلاً قم فالطعام صار جاهزاً. فتح أحمد عينيه قليلاً ثم أغمضهما من جديد وانقلب على الجانب الآخر وهو يقول من أين لنا الطعام.

وفي تلك اللحظة تشمّ الرائحة فجلس..

قال أحمد أثناء تناولهما الطعام بشهية، هل تعلم يا مجتبي، بأن هذا أطيب طعام تناولته في حياتي، ماذا تريد أن تسمي هذه الأكلة البكر؟ قال مجتبي: إنها (أكلة الملوك) يا أحمد.

وحينذاك تفاءلا كثيراً، وفرحا كثيراً، لأنهما يعلمان أن المعاناة مصنع الرجال.

.31.

انتصف ليلهما في الشرداق، والقمر الذي تأخر ظهوره بدا مثل وعاء
نحاسي مستدير نظفته النار.

وراحا كالسكارى في حالة من النشوة العميقة.

كانت الأسطورة الشخصية لمجتبى، تجلس على القمة، ساكنة وواثقة.
تراقب كفاحه.

كانت أحداث حياته في أغوارها تتأمله، عندما ترك أحمد على الطاولة
ومشى وحده على ضفة النهر في الضوء الوليد للقمر، مغتسلاً بندى النصف
الثاني من الليل. مشى وهو يفكر في كل ما اعترضه من إشارات أنارت
طريقه، وبالطرق الغريبة التي هداه الله بها إلى ما فعل، ليتألق مع كل منها
فرح حواسه كلها.

مشى صامتاً، وكان الصمت صلاة، كأى صلاة أخرى، وكان في
قمة السرور، لأنه وصل في النهاية.

بعد أن توهج القمر، وسربل نوره الظلام والبيوت، ناما.

ناما في فندق قرب النهر، إلى أن ذرذر ضوء النهار وانحسر ضوء القمر،

استيقظا.

استيقظا بعد أن امتلأ الجوُّ بصياح الديكة وثغاء الغنم.
مرّت هنيهة من الصمت، وراح كل منهما يتأمل الآخر والمحيط، في نوع
من الصمت، يشبه حقل قمح في نيسان، عند اغتساله بالشمس بعد المطر.
وراوحت سعادة الدنيا بين عيني كل منهما، في لحظة تأجّجت فيها
نظراته، وابتسمت لهما الطبيعة، وابتسما لها، فأطلق كل منهما صرخة (آه)
لأنها الكلمة الوحيدة التي تتلاءم مع غبّطتهما، ونمت في داخل كل منهما
أغنية الكون كلّها.
وغادرا المكان وقلب كل منهما مفعمّ بالبهجة، ملونٌ بلون الحب.

تمت

وصار رجلاً مصطفى جلعود. - دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2021. -
124ص؛ 20سم. - (سلسلة الرواية؛ 2).
1 - 813.03 ج ل ع و 2 - 813.009561 ج ع ل و
3- العنوان 4- جلعود 5- السلسلة
مكتبة الأسد